منكرو السنة بين الجهل بالأصول وتهافت التأويل

Sunna Deniers Between Ignorance of the Origins and Refutation of Hermeneutics

إبراهيم عوض*

ibrahimawadoxford82@gmail.com

الملخص:

السُّنَّة هي المصدر الثاني للدين بعد القرآن، وإن كان الشائع القول بأنها المصدر الثاني للتشريع فقط. والحق أنها ليست المصدر الثاني للتشريع فحسب بل للعقيدة والأخلاق والسلوك والذوق أيضا؛ ذلك أن الرسول لم يكن يتناول فى أحاديثه أمور التشـــريع وحدها، بل كان يدعو معها إلى الأخلاق الكريمة والتصـــرفات القويمة والذوق الراقي والعقيدة الســـليمة وما إلى هذا كما نعرف جميعا. قال الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم: "**ألا إنِّى أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ**".

فمِثْلُ الكتاب هو السـنة الشـريفة. وهذا أمر طبيعي، فليس من المعقول أن يكون الرسـول مجرد حامل للوحي لا يصـنع شـيئا آخر غير تبليغه للبشـر مهما عجز أولئك البشـــر عن فهم القرآن، ومهما وقفوا حائرين أمام النص لا يدرون كيف يطبقونه أو كيف ينزّلون الواقعة التي أمامهم على المبادئ العامة التي يتضـمنها، أو وجدوا أنفسـهم فى حيص بيص؛ لأن القرآن لم يتعرض لهذه التفصيلة أو تلك، فمن الطبيعي أن يتكلم الرسول فى هذه الحالات وأشباهها.

* أستاذ الأدب العربي والنقد الأدبي بكلية الآداب جامعة عين شمس.

ولابد أن يكون كلام الرسول في الدين صحيحًا مادام القرآن لم ينزل بخلافه، ويهدف هذا البحث إلى رد عدد من شبهات فئة تنتسب إلى الإسلام ظهرت فى العصر الحالي تنكر الأحاديث ولا ترى سوى القرآن، وترفض ما أُثِر عن الرسول –صلى الله عليه وسلّم– من قول أو فعل أو تقرير، ولا ترى له قيمة. وهذه الفئة تسمى: القرآنيين.

الكلمات المفتاحية: السنة النبوية؛ منكرو السنة؛ القرآنيون.

Abstract:

The Sunnah is the second source of Islamic religion after the Qur'an, although it is commonly said that it is the second source of legislation only. The truth is that it is not only the second source of legislation, but also of belief, morals, behavior and taste as well. This is because Prophet Muhammad did not deal in his Hadiths with matters of legislation alone, but rather he called with them to decent morals, correct behavior, good taste, sound belief as well as other principles. The Prophet, may God's prayers and peace be upon him, said: "Verily, I have been given the Book and the like of it with it." The 'like' of the Qur'an is the Noble Sunnah. This is natural, for it is not reasonable for the Prophet to be a mere bearer of the Revelation only conveying it to humans, no matter how incapable they are of comprehending the Qur'an, and no matter how confused they are in front of the text, not knowing how to apply it or how to relate the incident at hand to the general principles it contains, or rather feel perplexed because the Qur'an did not address this or that detail. It is hence natural for the Prophet to speak in these and similar cases, so his words must be

believed to be true and authentic as long as the Qur'an was not revealed contrary to it.

This research aims to retaliate against a number of suspicions of a group belonging to Islam, the Qur'anists, that appeared in the current era denying the hadiths and approving only the Qur'an, rejecting the Prophet's words, deeds or reports, considering it of no value.

Keywords: Sunnah; Sunna deniers; TheQuranists.

السُّنَّة هي المصدر الثاني للدين بعد القرآن، وإن كان الشائع القول بأنها المصدر الثاني للتشريع فقط. والحق أنها ليست المصدر الثاني للتشريع فحسب بل للعقيدة والأخلاق والسلوك والذوق أيضا؛ ذلك أن الرسول لم يكن يتناول فى أحاديثه أمور التشريع وحدها، بل كان يدعو معها إلى الأخلاق الكريمة والتصرفات القويمة والذوق الراقي والعقيدة السليمة وما إلى هذا كما نعرف جميعا. قال الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم: "**ألا إنِّى أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ**"[1].

فمِثْلُ الكتاب هو السنة الشريفة. وهذا أمر طبيعي، فليس من المعقول أن يكون الرسول مجرد حامل للوحي لا يصنع شيئا آخر غير تبليغه للبشر مهما عجز أولئك البشر عن فهم القرآن، ومهما وقفوا حائرين أمام النص لا يدرون كيف يطبقونه أو كيف ينزّلون الواقعة التي أمامهم على المبادئ العامة التي يتضمنها، أو وجدوا أنفسهم فى حيص بيص؛ لأن القرآن لم يتعرض لهذه التفصيلة أو تلك. فمن الطبيعي أن يتكلم الرسول فى هذه الحالات وأشباهها، ولابد أن يكون كلام الرسول فى الدين صحيحا ما دام القرآن لم ينزل بخلافه.

أما إذا نزل القرآن يخالف ما قاله الرسول أو عمله فهذا أمر استثنائي، وهو يؤكد أن سائر كلامه في الدين صحيح ما دام القرآن لم يخالفه فيه. وبالمناسبة فإن الأمور التي عاتبه القرآن فيها إنما تدل على حبه لدعوته وحرصه على خدمتها بكل ما يستطيع وميله للتيسير على العباد واجتهاده في راحتهم، لكن الوحي ينزل رغم ذلك مبينا أن خلاف ما صنع هو الأولى؛ إذ فوق كل ذى علم عليم هو الله سبحانه، الذي يعرف مصلحة العباد أفضل من أي إنسان، حتى لو كان ذلك الإنسان نبيا رسولا. إذن فالرسول ليس مجرد مبلغ للقرآن عن ربه، بل هو عليه السلام يتكلم ويحكم ويقضي ويفتي ويشرّع ويوجه الأخلاق والسلوك ويرقّي الذوق ويصحح العقيدة ويهدي الضمير. وعلى هذا فإن أحاديثه جزء أساسي من الدين، فهي المصدر الثاني بعد القرآن. وقد حذر النبي –صلى الله عليه وسلّم– المسلمين أن ينكروا السنة بحجة أن في كتاب الله الكفاية: "**ألا هل عسى رجلٌ يَبْلُغُه الحديثُ عنى وهو مُتَّكِئٌ على أريكَتِهِ، فيقولُ: "بينَنَا وبينَكم كتابُ اللهِ: فما وجدْنا فيه حلالا استحلَلْنَاه، وما وجدْنا فيه حرامًا حَرَّمناه، وإنَّ ما حرَّمَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كما حرمَ الله**"[2]، "**لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُم مُتَّكِئًا على أريكَتِهِ يأتيهِ الأمرُ من أمري ممَّا أمرتُ بهِ أو نهَيْتُ عنهُ، فيقول: "فَيَقُولُ لَا نَدْرِي مَا وَجَدْنَا في كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ**"[3].

إلا أن هناك فئة تنتسب إلى الإسلام ظهرت في العصر الحالي تنكر الأحاديث ولا ترى سوى القرآن، وترفض ما أُثِر عن الرسول من قول أو فعل أو تقرير، ولا ترى له قيمة. بل إن بعضهم ينفي أن يكون الرسول قد نطق بشيء آخر سوى القرآن، وكأنه جهاز تسجيل وليس إنسانا ذا عقل وقلب

وضمير وشعور بالمسئولية وقدرة على الشرح والتوضيح، والتطبيق، والحكم، والتوجيه. وهذه الفئة تسمى: القرآنيين.

ولتلك الطائفة بذرة قديمة، فقد كتب الخطيب البغدادي في كتابه: "الكفاية في علم الرواية" أن "عمران بن حصين رضي الله عنه كان جالسًا ومعه أصحابه، فقال رجل من القوم: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال له: أُدْنُهْ. فدنا، فقال: أرأيت لو وُكِلْتَ أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعًا، وصلاة العصر أربعًا، والمغرب ثلاثًا تقرأ في اثنتين؟ أرأيت لو وُكِلْتَ أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعًا، والطواف بالصفا والمروة؟ ثم قال: أي قوم، خذوا عنا، فإنكم والله إلَّا تفعلوا لتَضِلُّنَّ"[4] وفي رواية من طريق آخر: "أن رجلًا قال لعمران بن حصين: ما هذه الأحاديث التي تحدثوناها، وتركتم القرآن؟ قال عمران: أرأيت لو أبيت أنت وأصحابك إلا القرآن من أين كنت تعلم أن صلاة الظهر عدتها كذا وكذا، وصلاة العصر عدتها كذا، وحين وقتها كذا، وصلاة المغرب كذا، والموقف بعرفة، ورمي الجمار كذا، واليد من أين تقطع؟ أمن هاهنا أم هاهنا أم من هاهنا؟ ووضع يده على مفصل الكف، ووضع عند المرفق، ووضع يده عند المنكب. اتبعوا حديثنا ما حدثناكم، وإلا والله ضللتم."[5]

وذكر ابن تيمية في "رسالة الفرقان بين الحق والباطل" عن الخوارج أن "أصل مذهبهم تعظيم القرآن وطلب اتِّباعه، لكنْ خرجوا عن السنة والجماعة، فهم لا يَرَوْن اتِّباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن كالرجم ونصاب السرقة وغير ذلك"[6]. وبالمثل نراهم لا يوافقون على المسح على الخفين؛ لأنه ليس مذكورا في كتاب الله. كذلك فإن النجدات[7] أضافت إلى ذلك إسقاط حد الخمر

لعدم وروده في القرآن. وكان بعض المعتزلة على الأقل لا يَرَوْن في الحديث المتواتر حجية، لجواز دخول الكذب عليه. كما كان النظّام[8] يَعُدّ أبا هريرة أكذب الناس.

ومن الذين يقولون بذلك أيضا طائفة من أهل الهند ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر منها مولوى عبد الله جكرالوي، ومولوي أحمد الدين أمرتسري، ومولانا أسلم جراجبوري، وغلام أحمد برويز على ما وضح د. خادم بخش في كتابه: "القرآنيون وشبهاتهم حول السنة"[9].

وكان د. توفيق صدقي، وهو مصري، لا يرى الإسلام شيئا آخر سوى القرآن[10]، وإن كان قد رجع عن ذلك.

وقد انتشرت تلك الدعوة حتى وجدنا من أولئك القرآنيين عددا من المصريين يتزعمهم د. أحمد صبحي منصور المدرس السابق بجامعة الأزهر، والمقيم حاليا في أمريكا. فهو، في كتابه: "القرآن وكفى مصدرا للتشريع"[11] المملوء بالأخطاء الإملائية والنحوية والصرفية المزعجة، يهاجم بشراسةٍ بالغةِ الأحاديثَ وجامعي الحديث. وهو أشهر المهاجمين للسنة في عصرنا، وربما في غير عصرنا أيضا. ولهذا سأكتفي بالرد على دعاواه بوصفه ممثلا لتلك الطائفة. ونبدأ بما قاله من أن كل واحد من أصحاب كتب الحديث النبوي الشريف قد انتخل أحاديث كتابه من عشرات آلاف الأحاديث؛ مما يدل، كما يقول، على أن الغش كان قد استشرى في ذلك الباب. والواقع أن هذا دليل ضده لا له؛ إذ لو كان المحدِّثون قد اخترعوا الأحاديث التي تضمها كتبهم حسبما يقول هو وأمثاله فلِمَ أتعبوا أنفسهم في الغربلة والنخل؟ نعم لماذا لم يأخذوا كل حديث قابلهم وضمَّنوه كتبَهم ما دام الأمر تدليسا في تدليس؟

أما قوله، في كتابه المذكور: إن الإسلام لم ينتظر البخاري ومسلم وبقية علماء الحديث حتى يؤلفوا كتبهم تلك، بل كان المسلمون يمارسون دينهم قبل هؤلاء بقرون، فالرد عليه أن المسلمين كانوا يستعينون طوال تلك القرون بالأحاديث النبوية أيضا، وكل ما فعله علماء الحديث أنهم اجتهدوا في غربلة الأحاديث المنسوبة للنبي –صلى اله عليه وسلّم– وتبويبها بحيث يجد القضاة والمفتون وأصحاب المذاهب الفقهية مجموعات الأحاديث بين أيديهم منظمةً جاهزةً لا تحوجهم كل مرة إلى تقويمها والتثبت من صحتها. وليس معنى هذا أن الأحاديث التي جمعها أهل الحديث هي فوق النقد، فما هم في نهاية المطاف إلا بشر يصيبون ويخطئون، شأنهم شأن أي عالم آخر في أي ميدان من ميادين العلم، لكنهم قد بذلوا مع ذلك جهودا هائلة في الفحص والتقويم والتصنيف!

كذلك يزعم أحمد صبحي منصور أن الأحاديث النبوية تناقض القرآن وتحاربه. وهذا كلام خاطئ؛ إذ متى كانت أحاديث الرسول مناقضة للقرآن؟ إن ذلك لو حدث فمعناه أن تلك الروايات ليست من كلام النبي عليه الصلاة والسلام، اللهم إلا إذا ثبت أن التناقض المزعوم ليس تناقضا، بل هو تخصيص لحكم عام مثلا، أو استثناء لحالة من الحالات التي لها ظروف مختلفة، أو حكم وقتي انتهى العمل به وبقي الحديث الذي يتناوله لم يندثر... وما إلى ذلك.

ومما استند إليه منصور أيضا في محاربة السنة النبوية زعمه بأن وظيفة النبي محمد في القرآن لا تزيد عن التبليغ ألبتة. لكن ألم يحدث أن سأل أحد الصحابة النبي عليه السلام عن معنى آية قرآنية استعصى فهمها عليه، أو

جاءه أحد المسلمين يستفتيه في حالة خاصة لا يعرف كيف يطبق عليها الحكم القرآني العام، أو تحركت نفسه الشريفة لوعظ أصحابه بكلام من عنده يستوحي فيه القرآن؟ كذلك كان الرسول الكريم حاكما وقائدا عسكريا وقاضيا، إلى جانب كونه نبيا مبلغا للوحي. وهو ما يعني أنه عليه السلام قد ترك لنا تراثا من الأحاديث غاليا ينبغي أن نتمسك به حتى نفهم الإسلام فهما سليما. بل إن أحمد صبحي منصور يشتط فيدعي أن النبي عليه السلام قد خطب الجمعة أكثر من خمسمائة مرة، ومع ذلك لم تحفظ له خطبة واحدة، إذ كان يخطب الجمعة بالقرآن، والقرآن فقط.

والحق أن القرآن بوجه عام يمثل دستور المسلمين، فإذا قلنا إننا محتاجون إلى صوغ قوانين تنظم حياتنا، أيمكن أن يقول لنا قائل إن محاولة صياغة هذه القوانين تتناقض مع وجود القرآن؟ إن القرآن يكتفي في معظم الأحيان بالنص على الخطوط التشريعية العريضة والمبادئ الأخلاقية العامة، ثم يأتي الحديث النبوي فيقدم لنا الفتاوى والأحكام التفصيلية التي تستوحي تلك المبادئ العامة وتحولها إلى تطبيقات عملية يومية. إن القرآن والسنة النبوية يشبهان كتابا ذا هوامشَ وحواشٍ: القرآن فيه يمثل المتن، والحديث يقوم بدور الشرح والتعليق، ولا تعارض البتة بين الاثنين. وكلام الرسول وأفعاله هي جزء من الوحي، إلا إذا اجتهد الرسول عليه السلام من عند نفسه ولم توافقه السماء على ما اجتهد، فعندئذ ينزل القرآن منبها إياه بوجوب العدول عن هذا أو باستحسان ذلك العدول على الأقل: "**عَبَسَ وتولَّى * أنْ جاءه الأعمى * وما يدريك؟ لعله يَزَّكَّى * أو يَذَّكَّرُ فتنفعَه الذكرى * أما مَنِ استغنى * فأنت له تَصَدَّى * وما عليك أَلا يَزَّكَّى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تَلَهي * كلا،**

إنها تذكِرة"[12]، "يا أيها النبي، لِمَ تحرّم ما أَحَلَّ اللهُ لك تبتغى مرضاةَ أزواجك، والله غفور رحيم؟"[13]، "وإذا قيل لهم تَعَالَوْا يستغفرْ لكم رسولُ الله لَوَّوْا رؤوسَهم ورأيتَهم يَصُدّون وهم مستكبرون * سواءٌ عليهم أَسْتغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفرْ لهم لن يغفر الله لهم والله لا يَهْدِى القومَ الفاسقين"[14].

وهناك رُؤَى رآها صلَّى الله عليه وسلَّم في المنام وحدّث بها من حوله، وحوارات دارت بينه وبين المؤمنين ومجادلات قامت بينه وبين الكافرين لم ينزل بها وحي، ومن ثم لم تكن تبليغا. وهناك أيضا حُكْم النبي وقضاؤه بين المتخاصمين، وهذا طبعا غير القرآن. وهناك تصرفات تصرفها النبي ووافقه القرآن فيها أو عاتبه عليها. فإذا أضفنا إلى ما مرّ أن في القرآن أحكاما كثيرة أتت مجملة عامة، وتحتاج عند التطبيق إلى النظر فيها لاستخراج الحكم في هذه الواقعة الخاصة أو تلك لتنزيلها عليها، تبيّن لنا على نحو يقيني أنه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكن مجرد مبلغ للقرآن وكفى. مثال ذلك آية السرقة في سورة "المائدة"، التي لا بد أن تثير عند قراءتها الأسئلة التالية: ما قيمة المبلغ الذي تُقْطَع عنده يد السارق؟ وهل تُقْطَع في كل الأحوال أم هل هناك ظروف وشروط معينة لا بد من توفرها حتى يتم القطع؟ وكيف ينفَّذ هذا القطع؟ بل ما معنى القطع؟ كذلك عندنا الزكاة، ولكن كيف يخرج المسلم زكاته؟ وما نِصَابُها؟ وما نسبتها إلى ماله؟ وهل الزَّكَوَات كلها شيء واحد أم هل تختلف حسب نوع المال المزكَّى عنه؟ وهل لا بد من إخراجها عَيْنًا أم هل من الجائز أن نخرجها نَقْدًا؟ وهكذا يرى القارئ أن هناك، إلى جانب القرآن الكريم، مندوحةً واسعةً للإسهامات النبوية من خلال القول والسلوك والتطبيق والحُكْم... إلخ.

أما فيما يتعلّق بما قاله أحمد صبحي منصور عن الصلاة، وأنها إنما وردت لنا من أيام إبراهيم عليه السلام، ولم تَرِدْ عن طريق السنة النبوية، فيا ترى كيف وصلت إلى العرب على أيام النبي؟ أترى العرب في الجاهلية كانوا يصلون على النحو الذي كان يصلي عليه إبراهيم طوال كل هاتيك القرون منذ عصر أبي الأنبياء حتى عصر محمد –صلى الله عليه وسلّم–؟ أم وصلتنا في كتاب من كتب إبراهيم –عليه السلام–؟ فأين يا ترى ذلك الكتاب؟ وهل كانت صلاة إبراهيم تتضمن مثلا "الفاتحة" وآيات القرآن، التي لم تكن قد نزلت بعد، أم ماذا؟ ثم كيف يسكت القرآن فلا يذكر أن صلاة النبي محمد وأتباعه ليست شيئا آخر غير صلاة إبراهيم عليه السلام وسائر الأنبياء؟ الواقع أنه ليس أمامه إلا الإقرار بأنها إنما وصلت إلينا من خلال سنة نبينا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم ليس إلا. وبالمناسبة فأحمد صبحي منصور يصلي صلاة تختلف تماما عن صلاتنا في مواعيدها وركعاتها وأقوالها وطريقة تأديتها. فكيف يقول إن مسألة كهذه لا يمكن أن يقع فيها الاختلاف؟ ثم ماذا كان يمكن أن تكون النتيجة لو لم تكن هناك أحاديث تضبط تلك المسألة؟ لا ريب أن الاختلاف سيكون في تلك الحالة أشد وأزعج، ولسوف تزداد شقة ذلك الخلاف ازديادا فاحشا يثمر فتنة لا تبقي ولا تذر، ويتفتت المسلمون شذر مذر!

وبمناسبة الصلاة نشير هنا إلى ما كتبه أحمد صبحي منصور في مقال له على شبكة الإنترنت بعنوان "الإسناد في الحديث"[15] عن الحديث التالي: "**من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصرا في الجنة**"[16] تكذيبا وتهكما، إذ قال: اسْتَحْضِرْ عقلك ولا تعطه إجازة، وتفكر في معنى ذلك الحديث المنسوب كذبا للنبي عليه الصلاة والسلام. إنه يؤكد على أن كل من بنى لله

مسجدا بنى الله تعالى له قصرا في الجنة مهما كان الشخص مؤمنا أو كافرا، ومهما كان مصدر المال طيبا أو خبيثا. يعنى أن السيد هتلر من حقه أن يكون له قصور في الجنة إذا بنى بضعة مساجد، ويعنى أيضا أن كل مختلس وظالم وناهب لأموال الناس يستطيع إذا بنى ببعض أمواله الحرام مسجدا أن يدخل الجنة. هل يتفق ذلك مع تشريع الإسلام؟ ثم إن الحديث الذي يبيع قصور الجنة لكل من يتبرع ببناء مسجد يحدد لنا منذ البداية أقل مساحة مقبولة للمسجد. يقول: "من بنى الله مسجدا ولو كمفحص قطاة"، أي يكون مساحة المسجد كقدر ما تتحرك به ساق القطاة حين تفحص بساقيها الأرض. والقطاة هي طائر صغير الحجم أقل من العصفور الصغير. إنها في الحدود 2 × 5 سم. أي من بنى الله مسجدا ولو كانت مساحته 5 سم × 2 بنى الله له قصرا في الجنة، حتى لو كان من مال حرام مهما كانت شخصية ذلك المتبرع، وحتى إذا كان ذلك المسجد 5 سم × 2 لا يستطيع دخوله إلا النمل والصراصير الوليدة. هل يعقل أن يتكلم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الكلام؟ ولكن ذلك الحديث تم إسناده أو تمت نسبته للنبي عليه الصلاة والسلام، ورواه ابن ماجه في "مسنده" عن فلان عن فلان. وآمن الناس بصحة ذلك الإسناد. ومن هنا فإن ذلك الحديث الكاذب هو المسئول عن إقامة 38 ألف مسجد وزاوية في القاهرة الكبرى في العشرين سنة الماضية، وكلها تنشر ثقافة التطرف عبر أحاديث مسندة أو منسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم زورا، وهي تخالف القرآن والسنة الصحيحة للنبي عليه الصلاة والسلام. وبدلا أن تتوجه لبناء مساكن للشباب والعائلات التي تسكن المقابر فإنها توجهت لبناء مساجد أيديولوجية تزيد عن حاجة المسلمين الذين يستطيعون الصلاة في كل مكان، ومع العلم

بأن حق ابن السبيل في تشريع الإسلام ثابت في الزكاة الرسمية والصدقة التطوعية والفيء والغنيمة، ولا يصح الالتفات لرعاية أبناء السبيل من الأغراب إلا بعد ضمان المسكن والطعام لأبناء البلد. فكيف إذا كان أبناء البلد أنفسهم لا يجدون السكن بحيث ضاعت أحلام الشباب في الزواج وأصبحت العنوسة أزمة مستفحلة؟ ومع ذلك تفاقمت تلك المشكلة؛ لأن أموال الصدقات استنفذها أرباب الصحوة السلفية في بناء عشرات الألوف من المنابر التي تؤسس لدولتهم القادمة! ومن دعائم تلك الدولة ثقافة التراث للعصور الوسطى، تلك الثقافة التي أصبحت مقدسة عبر الإسناد أو عن طريق نسبتها زورا للنبي عليه الصلاة والسلام مهما خالفت العقل والإسلام".

وبداية أحب أن أوضح للقارئ أن ذلك الكاتب لا يفرق في كتابته بين همزة الوصل وهمزة القطع إذ جعل كل الهمزات تقريبا وصلية، وجعل بعض همزات الوصل قطعية، وقد صوبتها في الاقتباس السابق. كما أنه يخطئ نحويا وصرفيا وإملائيا على نحو غريب، وبخاصة من شخص مثله تعلم في الأزهر. والسؤال هو: ما علاقة سلفيي اليوم بهذا الحديث؟ هل هم الذين اخترعوه وضحكوا على الناس به؟ إن الحديث قديم وموجود في كتب السنة منذ بضعة عشر قرنا، ومن ثم فلا معنى لهذا الهجوم على السلفيين، الذين قد يكون رأيي فيهم أسوأ من رأيه هو إن كان ينفر منهم فعلا لا تظاهرا. وإذا كان النبي – صلى الله عليه وسلّم– لا ينبغي أن يحضّ المسلمين على بناء المساجد فعلى بناء أي شيء ينبغي أن يحضهم؟ على بناء الكنائس والمعابد اليهودية ومعابد المجوس والهندوس مثلا؟ إن أحمد صبحي منصور يريد أن يوهمنا أنه يغار على القرآن والإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام!! وهنا أحب أن أوضح

للقراء أنه معروف عنه أنه ما إن انتقل إلى أمريكا، حتى كان أول شاغل له هو بناء مسجدِ ضِرَار يناطح به المساجد الإسلامية، والصلاة فيه تختلف تمام الاختلاف عن صلاتنا نحن المسلمين؟ فإذا كان يرى أنه لا داعي لبناء مسجد لأن الصلاة تقام في أي مكان، فلماذا لا يصلّى هو في أي مكان ويوفر الفلوس الخاصة ببنائه للفقراء والمساكين؟ ثم إنه يترك الدولة، التي ينبغي أن توفر للمواطنين المساكن، ويهاجم بناة المساجد.

أما مفحص القطا فقد قرأت في تقرير في صحيفة "الاتحاد" الإماراتية عنوانه "مشروع مفحص القطاة" بتاريخ 7 إبريل 2017م فمساحته 250 سم مربع تقريبًا (13.9 × 18 = 250). فانظر الفرق بين كلام أحمد صبحي منصور وكلام الصحيفة. وهو يدلك على مدى جهله وتدليسه ولا مبالاته بأن يكتشف الناس كذبه. كما أن حجم جسم القطاة قريب من حجم جسم الحمام، وليس أصغر من حجم العصفور الصغير كما يقول هذا المدلس. ومن ادعاءاته الفجة الغليظة أن المساجد تخرّج إرهابيين، وكأن المساجد موجودة تحت الأرض بعيدة عن عيون الناس والدولة، التي تعرف دبة النملة في أي مكان على أرضها. إن الإرهابيين يعقدون اجتماعاتهم في الخفاء بعيدا عن العيون والآذان، وإلا لقضت عليهم الدولة في طرفة عين. ثم ما معنى الربط بين هتلر والمساجد إلا أن يرضي قلوب اليهود ومجرمي الغرب عنه وعما يقول؟ إنه بجرة قلم واحدة قد ربط بين المسجد وهتلر، أي بين الإسلام والنازية. فانظر بالله عليك مدى خبث الطوية وغلظ المشاعر! إنه لا يرى أي بأس في بناء الكنائس والمعابد، لكنه يكره كراهية العمى بناء مسجد واحد، ولهذا يربط الجوامع بهتلر؛ كي ينفر الناس منها ومن الصلاة والإسلام.

وأما زعمه أن الحديث يعني أنه لا يهم أن يكون باني المسجد مؤمنا، أو كافرا، أو لصا، أو رجلا مستقيما حتى يدخل الجنة، فهل الكافر يدخل الجنة أصلا؟ ثم هل الإسلام يقبل السحت والحرام؟ إن الله سبحانه "طيب لا يقبل إلا طيبا"، والحرام مصيره ومصير أصحابه النار مع المدلسين بمشيئة الله. وأما تهكمه على عبارة رسول الله: "ولو كمفحص قطاة" فهو دليل آخر على الجهل والعناد. إنه رغم أزهريته لا يفقه الملاحظ البلاغية في الحديث الجميل. والمبالغة، كما هو معروف، من الأدوات البلاغية ذات التأثير القوي على النفس البشرية. والرسول الذي قال ذلك هو نفسه القائل: "**أَوْلِمْ ولو بظلف شاة**"، فهل هناك من يجهل معنى هذا الحديث فيذهب يسخر من "ظلف الشاة" مقيما الدلائل والبراهين على أنه لا يؤكل ولا يصح أن يدعو أحد أحدا إليه؟ ومثله قوله عليه السلام: "**لو يَعْلَمُونَ ما في العَتَمَةِ والصُّبْحِ لَأَتَوْهُما ولو حَبْوًا**". وهل هناك أصلا إنسان يفكر أن يأتي إلى المسجد حبوا في التراب والطين والحجارة، وتتسلخ فوق ذلك ملابسه وركبتاه؟ بل هل من كان حاله هكذا يجب عليه الصلاة في المسجد أصلا؟ ومثله: "**اتقوا النار ولو بشق تمرة**". ومثله: "**ردُّوا السّائلَ ولو بظِلْفٍ مُحْرَقٍ**". كذلك لا يوجد عاقل يتهكم على قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: "**إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها**"؛ لأن هذه مبالغة يراد بها حث الناس على العمل مهما تكن الظروف، وإلا فهل إذا قامت القيامة سيكون هناك وقت أو بال لغرس فسيلة أو القيام بأي شيء آخر؟ وهل لو كان الإيمان في الثريا أكان من أهل فارس من يتناولونه كما يقول الحديث الشريف؟ فأما إن كان القارئ يفهم معنى الأدب والبلاغة فسيعجب بهذه الصورة غاية الإعجاب، وأما إن كان متخلفا في الذوق

والفهم فلسوف يعترض قائلا: وكيف يصل الإيمان يا ترى إلى الثريا؟ ثم كيف يستطيع الفرس أن يتناولونه، وليس ثم وسائل مواصلات تصل إلى هناك؟ وحتى لو وجدت وسائل مواصلات أنها لجديرة بأن تحترق وتذوب بمن فيها قبل أن تصل بزمن طويل من شدة حرارة النجم.

ومن مغالطاته الواضحة يقول: "وحتى إذا كان ذلك المسجد 5 سم ×2 لا يستطيع دخوله إلا النمل والصراصير الوليدة"! إنه بعد أن ربط المسجد بالإرهاب وبهتلر ها هو ذا يربطه بالنمل والصراصير. ثم ما ذنب الإسناد في هذا كله؟ ألا ما أكثر الأسانيد التي يرفضها رجال الحديث! ثم إن المسلمين عموما الآن لا يهتمون إلا بمتن الحديث ذاته، وبالتالي فإن الإسناد لا يقدم عندهم ولا يؤخر. وهو نفسه قد عاد بعد سطور فقال: "وفي عصرنا لم يعد أحد يهتم إذا كان الإسناد صحيحا أو ضعيفا، فيكفي أن يقال: "قال رسول الله" ليصدق الناس فورا أن النبي قال فعلا هذا الكلام"، وهو ما ينسف كل ما قاله عن الإسناد!

وكعادة أحمد صبحي منصور في الادعاء؛ كتب قائلا في المقال نفسه: "ومنذ عشر سنوات تقريبا جاءني صديق منزعج، قال إنه فوجئ ببلدته بالصعيد وقد سيطر عليها الشباب السلفي وأعادوها لما كان عليه السلف، ومن ذلك أنهم أوجبوا على العريس ليلة الدخلة أن يحمل عروسه إلى بيته وهي داخل زكيبة أو شِوال؛ لأن ذلك ما جاء في السنة والأحاديث. فقلت لهم إنهم قرءوا خطأ ذلك الحديث القائل بأنهم كانوا يدخلون بالنساء في شهر شوّال، وكانت نكتة هائلة. وعاد صديقي الجاهل إلى بلدته وقرأ لهم الحديث بالتشكيل الصحيح، وأنقذ بذلك بنات القرية من تجربة التعبئة في الأشوال والزكائب". فانظر كيف

يحاول عبثا أن يكون ظريفا. ترى هل سمع أحد بأن الشبان في الصعيد فعلوا ذلك؟ ثم إنه يتناقض في هذه الأسطر القليلة تناقضا فاضحا: فمرة يقول إن الشبان المذكورين أوجبوا على الأزواج أن يحملوا زوجاتهم ليلة الدخلة في شِوَال ليعود فيقول إن شرحه للحديث قد جَنَّب الفتيات المتزوجات هذه التجربة. فأي الأحمدين الصبحيين المنصورين نصدق؟! أما أنا فهو عندي كذاب بالثلث في كل ما يقول أو يكتب. ثم لو كان الشبان قد فهموا كلمة "شَوَّال" على أنها "شِوَال" فلماذا لم يفهموها بهذا المعنى في الحديث القائل: "مَن صام رمضانَ وأتبَعه ستًّا من شوالٍ فكأنما صام الدهرَ"، وبعد أن يصوموا رمضان يحضرون ستة أشولة وبهذا يكونون قد صاموا الدهر"؟ ثم هل كانت كلمة "شِوَال" (بمعنى "زكيبة") معروفة للعرب والمسلمين في ذلك العصر؟ وحتى لو كانت معروفة، فإن كلمة "شهر" قبلها كفيلة بأن تبعد عن الذهن ذلك الفهم المضحك. ثم أين القصص والحكايات التي تتعلق بهذا التقليد الغريب؟ الواقع أنه لا وجود لشيء من هذا لا في الأحاديث ولا في كتب التاريخ ولا في كتب الأدب ولا في المعاجم. كما أن قول عائشة: "تزَوَّجَنى رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في شَوّالٍ" معناه، بناء على ثقل ظل صاحبنا، أنه كان معها في الشوال حين دخل بها. ولكن كيف يتم التزوج في شوال؟

ونمضي مع أحمد صبحي منصور في هجومه التافه على الأحاديث النبوية فنراه يقول: "ونعود إلى البخاري في باب "مباشرة الحائض" ونقرر أن متن هذا الحديث قد تكرر في عدة أحاديث أخرى تنسب للنبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يباشر نساءه في المحيض. وكلها أحاديث كاذبة لأنها تنسب للنبي عليه السلام أنه يخالف القرآن، إذ يقول تعالى: "**ويسألونك عن المحيض.**

قل: هو أذى. فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن. فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله. إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين" (البقرة/ 222). أي أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن المحيض، وانتظر النبي صلى الله عليه وسلم الإجابة من السماء، فنزلت الآية تؤكد على اعتزال النساء جنسيا في المحيض وعدم الاقتراب منهن بعد حتى يطهرن، ثم يبيح الاقتراب منهن بعد الطهر. وهنا تناقض جليّ بين الآية الكريمة وحديث البخاري بحيث إنك إذا آمنت بالقرآن فعليك بتكذيب البخاري. أما إذا آمنت بحديث البخاري فأنت بالتالي تكذِّب بالقرآن. ومن هنا كان تأكيد الله تعالى في القرآن على الإيمان بحديث القرآن وحده، وما عداه ليس محلا للإيمان، وإنما هو قضية علمية قائمة على الشك، والحقائق فيها نسبية، وليست مطلقة مثل حقائق الإيمان. وبالتالي فإن تصديق الإسناد هو الذي يجعلها قضية إيمانية بالتزوير".

والحق أن هذا الحديث لأكبر دليل على انحراف أحمد صبحي منصور عن الصراط السويّ، فنحن هنا أمام نص قرآني ورد لنا تفسيره من خلال تصرف الرسول عليه السلام، وها هو ذا أحمد صبحي منصور يقدم لنا تفسيره هو. وهو يعمل جاهدا على كشط الأحاديث من الوجود كي يخلو له الجو فيبيض ويصفر كالحمامة التي كان يسمعها أبو فراس الحمداني وهو في سجن الروم أسير، فيغبطها على ما هي فيه من حرية يفتقدها هو تماما في زنزانته.

إن النهي في الآية الكريمة عن الاقتراب من النساء حتى يطهرن من الحيض ليس معناه أنه حرام على الأزواج الجلوس إليهن أو الكلام معهن أو ملامسة فرشهن أو مؤاكلتهن مثلا، وإلا كنا نتشبه باليهود، الذين جاء النبي

عليه السلام ضمن ما جاء ليضع عنهم هذا الإصر وأمثاله من الأغلال المزعجة والمعوقة عن الحياة السلسة، فأباح دينه الكريم تعامل الأزواج مع زوجاتهن الحُيَّض في كل شيء ما عدا الجماع. فهذا تفسير النبي عليه السلام، وهذا تفسير أحمد صبحي منصور. ولينظر المسلمون: من يتبعون ويطيعون؟

لقد كان اليهود يَتَباعَدُونَ عَنِ الحائِضِ تماما بِحُكْمِ كتابهم. ففي الإصْحاحِ الخامِسَ عَشَرَ مِن سِفْرِ "اللّاوِيّينَ": "**إذا كانَتِ امْرَأةٌ لَها سَيْلٌ دَمًا في لَحْمِها، فَسَبْعَةُ أيّامٍ تَكُونُ في طَمْثِها، وكُلُّ مَن مَسَّها يَكُونُ نَجِسًا إلى المَساءِ، وكُلُّ ما تَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا، وكُلُّ مَن مَسَّ فِراشَها يَغْسِلُ ثِيابَهُ ويَسْتَحِمُّ بِماءٍ ويَكُونُ نَجِسًا إلى المَساءِ، وإنِ اضْطَجَعَ مَعَها رَجُلٌ فَكانَ طَمْثُها عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا سَبْعَةَ أيّامٍ، وَكُلُّ فِرَاشٍ يَضْطَجِعُ عَلَيْهِ يَكُونُ نَجِسًا**".

ومِن قَبائِلِ العَرَبِ مَن كانَوا يبغضون الحائِضُ، وكان منهم من يخرجونها إلى ظاهر المساكن حَتّى تَطْهُرَ. وقَوْلُهُ تعالى: "**فاعْتَزِلُوا النِّساءَ في المَحِيضِ**" كِنايَةٌ عَنْ تَرْكِ مُجامَعَتِهِنَّ. فالْمُرَاد مِنَ النَّهي عَنِ الْقُرْبِ هو النَّهي عَنْ لَازِمِهِ الذي يُقْصَدُ مِنْهُ، وَهُوَ الْجماع. وعلى هذا فمعنى "اعْتَزِلُوا نِساءَكم" هو اعْتَزِلُوا مُجامَعتهنُ. وقَوْلُه سبحانه: "**ولا تَقْرَبُوهُنَّ حَتّى يَطْهُرْنَ**" توضيح لِلْمُرادِ مِنَ الِاعْتِزالِ، وأنَّهُ لَيْسَ التَّباعُدَ عَنهن جسديا كَما هو الحال لدى اليَهُودِ، بَلْ عَدَم مجامعتهن. و"**عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهَا فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النبيّ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عَنْ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ. قُلْ: هُوَ أَذًى"... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: اصْنَعُوا كُلَّ شيء إِلَّا الْجِمَاعَ**"[17]. وفي حَدِيثِ حِزَامِ بْنِ حَكِيمٍ أَنَّ عمهُ "**سَأَلَ رَسُولَ اللهِ**

صلَّى الله عليه وسلَّم: مَا يَحِلُّ لِى مِنِ امْرَأَتِى وَهِي حَائِضٌ؟ قَالَ: لَكَ مَا فَوْقَ الإِزَارِ"[18]. وَهَذَا الْحُكْمُ يمثل التوسط بَيْنَ إِفْرَاطِ اليهود الَّذِينَ يَعُدُّونَ الْمَرْأَةَ الْحَائِضَ وَكُلَّ مَنْ يَمَسُّهَا أَوْ يَمَسُّ ثِيَابَهَا أَوْ فِرَاشَهَا نجسا، وَتَفْرِيطِ الَّذِينَ يَسْتَحِلُّونَ مُجامعتها في الْحَيْضِ بمَا فِيهِ مِنَ الْأَذَى.

ومما يدل على أن القرب من الزوجة معناه الجماع الأحاديث التالية: "**عن عبد الله بن عمر: إذا كانتِ الأَمَةُ تحتَ عَبدٍ، فأصابَتْها عَتاقةٌ، فإنَّها تُخيَّرُ ما لم يَمَسَّها: إنْ شاءَتْ كانتِ امرَأتَهُ، وإنْ شاءَتْ فارَقَتْهُ. فإنْ قَرُبَ حتى يُجامِعَها لم تَستَطِعْ أنْ تُنتَزَعَ منه**"[19]. "**عن عبد الله بن عباس: أنَّ رجلًا أتى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: يا رسولَ اللهِ، إني ظاهرتُ من امرأتى، فوقعتُ عليها قبل أن أُكفِّرَ... فقال له رسولُ اللهِ: لا تَقْرَبْها حتى تفعلَ ما أمرَكَ اللهُ عزَّ وجلَّ**"[20]. "**عن جابر بن عبد الله: بينما نحنُ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في السوقِ إذا امرأةٌ قد أخذت بعنانِ حمارِهِ فقالت: إنَّ زوجى لا يقرَبُنى، ففرِّق بينى وبينَه. فدعاهُ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: ما لكَ ولها؟ جاءت تشكو منكَ. حقًّا أنك لا تقربَها؟ قال: يا رسولَ اللهِ، والذي أكرمكَ إنَّ عهدى بهذهِ لهذهِ الليلة. فبكتْ وقالت: كذبَ. ففرِّقْ بينى وبينَه، فإنَّهُ من أبغضِ خلقِ اللهِ إليّ. فتبسم رسولُ اللهِ –صلَّى الله عليه وسلَّم– ثم أخذ برأسِه ورأسِها فجمعَ بينهما، وقال: اللهم أَذْنِ كلَّ واحدٍ منهما من صاحبِه. قال جابرٌ: فلبثْنا ما شاء اللهُ أن نلبَثَ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالسوقِ، فإذا نحنُ بالمرأةِ تحملُ أُدمًا، فلما رأتْهُ طرحتِ الأُدْمَ وأقبلت إلى رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت: والذي بعثكَ بالحقِّ ما خُلِقَ من بشرٍ أحبَّ إليّ منهُ إلا أنتَ**"[21]. وفي "معجم عربى عامة"،

و"معجم الغنىّ"، و"المعجم الوسيط"، و"معجم اللغة العربية المعاصر": "**قَرِبَ الرجل المرأة: جامعها. وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ**".

كذلك كثيرا ما تستقل السنة النبوية بالتشريع، فكثير من الأحكام ثبت عن طريق السنة، ومنكر حجية السنة النبوية قوله شاذ مردود. وقد جاء في الحديث الصحيح المتواتر: "**لا يُجمع بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها**"[(22)]. ومع اتفاق أهل العلم قدامى ومحدثين على تحريم الجمع بين المرأة وعمتها اتباعا لما جاءت به الأحاديث الشريفة نجد أحمد صبحي منصور، في مقال له على المشباك بعنوان "الدين السني والتشريع بما لم يأذن به الله جل وعلا"[23] يقول: إن "الفقهاء أعملوا القياس فحرموا الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها قياسًا على حرمة الجمع بين المرأة وأختها، وحرموا الخالة والعمة من الرضاع قياسًا على تحريم الأم من الرضاع والأخت من الرضاع، ثم صاغوا في ذلك أحاديث هي أشبه بمتون الفقه وأحكام الفقهاء، فقالوا: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب"، وقالوا: "لا يجمع الرجل بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها". وهنا يقع التناقص مع كتاب الله. فإذا أراد رجل أن يتزوج عمة زوجته أجاز له القرآن ذلك؛ لأن عمة الزوجة ليست من المحرمات في نص القرآن، ولأنها تدخل في الحلال من النساء للزواج ضمن قوله تعالى: "**وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ**" (النساء/ 24)، ولكن الفقه السني يجعل ذلك الحلال القرآني حرامًا. وإذا أراد رجل أن يتزوج خالته من الرضاع أحلها له القرآن وحرمها عليه الفقه. وذلك يعنى بوضوح أنهم يحرمون ما أحل الله وينسبون ذلك للرسول، والرسول عليه السلام برىء من ذلك". ومما استقلت به السنة في التشريع حكم

أكل الحمار الأهلي: فقد قال عليه السلام: "**ألا لا يحل لكم الحمار الأهليّ ولا كل ذي ناب من السبع**"[24].

وعلماء الأمة قدامى ومحدثين متفقون على حجية السنة النبوية وأنها المصدر الثاني للتشريع. قال أيوب السختياني في "الكفاية في علم الرواية": "إذا حدثتَ الرجل بالسنة فقال: "دعنا من هذا وحدثنا من القرآن"، فاعلم أنه ضال مضل". وقال الشوكاني في "إرشاد الفحول": "إن ثبوت حجية السنة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظ له في الإسلام". وقبل ذلك هناك قوله تعالى: "**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**" (الحشر/ 7)، وقوله سبحانه: "**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**" (آل عمران/ 32)، وقوله جل جلاله: "**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**" (النور/ 63)، وقوله عز شأنه: "**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا**" (الأحزاب/ 36)، وقوله عز وجل: "**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**" (النساء/ 65)، وقوله تقدست آلاؤه: "**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**" (النساء/ 59).

وأما فيما يتعلق بخُطَبه صلَّى الله عليه وسلَّم في الجمعة وغيرها، فقد كانت كل خطبة تتكون أساسا من كلامه، مع الاستشهاد ببعض الآيات الكريمة بطبيعة الحال. وهذا هو الجزء الأول من أول خطبة جمعة له صلى الله عليه وسلم بالمدينة: "**الحمد لله أحمده وأسعينه وأستغفره، وأستهديه وأومن به ولا**

أكفره، وأعادي من يكفره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس وانقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرّط وضل ضلالا بعيدا. وأوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلمُ أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله. فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكرا. وإن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك، فعنه يقول عز وجل: "ما يُبَدَّل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد". فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعْظِم له أجرا، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما. وإن تقوى الله يوقى مقته ويوقي عقوبته ويوقي سخطه، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرفع الدرجة. خذوا بحظكم ولا تفرِّطوا في جنب الله. قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم: المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حَى عن بينة. ولا حول ولا قوة إلا بالله، فأكثِروا

ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه. الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم"[25].

ويهاجم أحمد صبحي منصور أيضا من يعدون سنة البخاري وغيره مصدرا من مصادر التشريع في الإسلام متسائلا: هل يعقل أن تظل مصادر التشريع في الإسلام ناقصة إلى أن يأتي البخاري وغيره بعد موت النبي بعدة قرون ليكملوها؟ وماذا نفعل بقوله تعالى: "**اليوم أكملتُ لكم دينَكم، وأتممتُ عليكم نعمتي، ورَضِيتُ لكم الاسلام دينا**"؟ فعنده أن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد للتشريع، إلا أن المسلمين أضافوا له مصادر أخرى توسعت بها الفجوة بينهم وبين الإسلام. وكان من بين تلك المصادر الأحاديث والسنن، وكلهم مختلفون فيها جزئيا وكليا. وعنده أن تلك الأحاديث ليست جزءا من الإسلام، وأولئك الذين يعدونها من الإسلام إنما يتهمون النبي عليه السلام بأنه لم يبلغ الدين كاملا وبأنه فرط في تبليغ هذا الجزء.

هذا ما قاله أحمد صبحي منصور. والواقع أنه يتلاعب هنا بالكلمات، فنحن لا نؤمن بسنة البخاري ولا غير البخاري، بل بسنة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، التي جمعها ودونها هؤلاء الأفذاذ. وكانت تلك السنة موجودة منذ أيام النبي، ودوَّن بعض الصحابة أشياء كثيرة منها كما سنوضح في موضعه من هذا الكتاب، وكان المسلمون يحفظونها، ويلجئون إليها في تشريعاتهم حين لا يجدون في القرآن مبتغاهم وجودا مباشرا مثلما كانوا ولا يزالون يستخدمون عقولهم واستنتاجاتهم وقياساتهم عندما لا يجدون في القرآن والحديث مبتغاهم وجودا مباشرا. وكل ما صنعه أصحاب كتب الحديث هو أنهم نقلوا أحاديث

النبي –صلى الله عليه وسلم– من الصدور والأفواه والصحف إلى كتب صنَّفوها هم وبَوَّبُوها حتى تكون تحت يد من يريد، فلا يضيع وقته في البحث عنها، ولا في التحقق منها بدءا من نقطة الصفر. ترى هل يصح أن نقول إن الناس لم تكن تتنفس إلى أن صنف العلماء والأطباء كتبا في الجهاز التنفسي والشهيق والزفير وشرحوا عملية التنفس؟ فكذلك الحال في كتب الحديث.

أما قوله إن المسلمين يعدون ما كتبه البخاري وغيره هو السنة النبوية، ويدّعون أنها وحي من السماء رغم أن ذلك الوحي قد امتنع عن كتابته الرسول والخلفاء الراشدون وغير الراشدين إلى أن جاء بعض الناس كالبخاري وغيره فتطوعوا بدافع شخصي لتدوين تلك السنة، بما يعني أن الإسلام ظل ناقصا إلى أن تطوع البخاري وغيره لإكماله في عصور الفتن والاستبداد والانحلال، أما قوله هذا فهو قول متهافت لا يصمد أمام النظر العقلي. فأي دافع شخصي بعث البخاري وغيره على تأليف "صحاحهم" أو "مسانيدهم" يا ترى؟ هل كان يريد ملكا أو مالا أو جاها؟ فكيف؟ إننا لا نقول إن كل ما جمعه البخاري أو غير البخاري في كتابه صحيح مائة في المائة، بل نقول إنهم قد بذلوا في تلك السبيل جهودا عبقرية نبيلة نرجو أن يجازيهم الله عليها خير الجزاء. وهم لم يأتوا بتلك النصوص من عندياتهم، بل جمعوا ما كان متداولا على الألسن أو محفوظا في القلوب أو مثبتا في الصحف، ويعمل به المسلمون في تصريف شئونهم التشريعية، والأخلاقية، والسلوكية، والعقيدية. إنهم، كما قلنا ونقول، لم ينشئوها من العدم، بل كانت موجودة، وكل ما صنعوه هو أنهم جمعوها وتحققوا حسب استطاعتهم من صحتها وبَوَّبُوها حتى يكون استعمالها سهلا ميسورا لمن يريد.

وهنا نراه يلجأ إلى اتهام البخاري بأنه أساء بأحاديثه تلك إلى مقام النبي الكريم، موردا حديثا يقرؤه بطريقته المريبة زاعما أن البخاري يصور فيه الرسول عليه الصلاة والسلام بصورة من يريد اغتصاب امرأة من النساء، مع أن الحديث إنما يتكلم عن سيدة كان النبي قد خطبها وعقد عليها لكنه لم يكن قد دخل بها. وتصادف أن وصلت الزوجة المذكورة إلى النبي وهو في بعض الطريق مع صحابته، وأُنْزِلَتْ في بستان، فترك النبي أصحابه ليرى زوجته الجديدة، فما كان منها حين رأته يمد يده إليها إلا أن استعاذت بالله ظنا منها أن ذلك سيجعلها أحظى عنده حسبما أفهمها بعض زوجات النبي. فكان أن أجابها الرسول عليه الصلاة والسلام قائلا: عُذْتِ بمعاذ. أي أنت الآن في حماية الله ما دمت قد استعذت به. ثم سرَّحها إلى أهلها تسريحا جميلا وأكرمها وأعطاها بعض المال تطييبا لخاطرها رغم انخداعها بما سمعت وتنفيذها له بالحرف مما لا يجعلها أهلا لأن تكون زوجة للنبي. إن الحديث الذي استشهد به أحمد صبحي منصور على صحة اتهامه للبخاري هو حديث موجز لا يعطي الصورة كاملة كما شرحتها هنا، بيد أن الرجوع إلى روايات الحديث الأخرى من شأنه أن يجلِّي الأمر تجلية تامة ويوضح ما أراد منصور التعمية عليه ليصدّق القراء المتعجلون اتهامه المجحف للبخاري رضي الله عنه.

ومن الحجج التي يلجأ إليها أحمد صبحي منصور في محاربته للحديث النبوي الشريف تفسيره العامي لقوله تعالى شأنه: "**ما فرَّطنا في الكتاب من شيء**" (الأنعام/ 38)، وقوله سبحانه: "**ونزَّلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء**" (النحل/ 89)، متصورا أنه يمكنه الاستدلال بذلك على وجوب استغناء المسلم بالقرآن عن كل شيء آخر. والحق أنه لو كان صادقا في هذا الذي يقول لكان

أولى به أن يمزق كتبه ومقالاته أيضا. أليس القرآن قد ذكر كل شيء، وبيّن كل شيء، ولم يفرط في أي شيء؟ وهذا يذكِّرني بالسؤال الذي كنا نسمعه في صبانا من بعض العامة حولنا: "إذا كان القرآن فيه تبيان كل شيء، فكيف لم يذكر عدد الأرغفة التي تنتجها أفران مصر على سبيل المثال؟". إننا لا نشاحّ في أن القرآن قد بيّن كل شيء ولم يفرِّط في ذكر أي شيء، ولكن بمعنى غير هذا المعنى العامي الساذج. إن القرآن كثيرا ما يكتفي برسم الخطوط العامة في العقيدة والتشريع والأخلاق والعلاقات البشرية، ثم يتركنا نستخلص منها ما نعالج به مشاكلنا التي تتجدد مع الأيام.

وقد كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– هو أول من قام بتطبيق مبادئ القرآن واستخراج الأحكام التفصيلية من مبادئه وتشريعاته العامة وتطبيقها على الوقائع التي تستجد كل يوم، فكيف يُطْلَب منا أن نهمل ما تركه لنا الرسول الكريم على اعتبار أنه يتناقض مع إيماننا بالقرآن؟ أما قوله إن "النبي يوم القيامة سيعلن براءته من أولئك الذين تركوا كتاب الله وهجروه جريا وراء مصادر أخرى ومعتقدات ما أنزل الله بها من سلطان: "**وقال الرسول: يا ربِّ، إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا * وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا من المجرمين، وكفى بربك هاديا ونصيرا**" (الفرقان/ 30) فهو تكرير للاتهامات السخيفة المتنطعة التي لا يَكِلّ ولا يَمَلّ من توجيهها لعلماء الحديث خاصة، والمسلمين عامة؛ إذ لا يوجد مسلم يستعيض بكتب الحديث عن كتاب الله، بل كل ما هناك أنها تساعدنا على فهم القرآن وتطبيقه على أحسن وجه ممكن، بدلا من الانفلات في أجواز الفضاء دون ضابط ولا رابط كما يفعل هو نفسه ومَنْ على شاكلته. ثم هل يمكن أن يعلن النبي براءتَه ممن يشهد له صلَّى الله عليه وسلَّم بالنبوة

والرسالة، ويقف مع من يكفِّر الذي يقول: "أشهد أن محمدا رسول الله" حسب مزاعم أحمد صبحي منصور؟ وإذا كانت الشهادة لمحمد بالنبوة والرسالة كفرا وشركا وإثما فما هي الشهادة يا ترى التي تُرْضِى اللهَ ورسولَه؟

وهو يؤكد، ونحن قبله نؤكد، أن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم هو المثال الأعلى في الخلق والسلوك والعقل والفصاحة والدعوة والتخطيط والقيادة العسكرية والزعامة السياسية. لكننا نتساءل: ترى كيف تواتي المسلمَ الحقَّ نفسُه على إهمال ذلك التراث النبوي العظيم والبدء كل مرة من جديد دون محاولة الاستفادة من هذا التراث الذي يقول فيه منصور قصائد وَلْهي ليستدير فيفاجئنا بأن علينا نبذه تماما، وإلا كنا مشركين كافرين؟ ثم إذا كان الوحي قد عاتبه عليه السلام فيما لم يوافقه عليه، وفي الوقت ذاته لم يعترض على شيء مما وصلنا من أحاديثه وتصرفاته الشريفة الأخرى، أفلا يحق لنا أن نفهم أن هذه الأحاديث والتصرفات تحظى من القرآن بالرضا والقبول؟ ألا يرى القارئ أن منصور يتخبط تخبطا عنيفا ولا يستطيع أن يهتدي إلى الخروج من المأزق الذي أوقع نفسه فيه سبيلا؟

كذلك نراه يقول إن ما وصلنا من روايات الأحاديث النبوية فيه الصواب والخطأ. وتعليقنا عليه هو أن علماء الحديث، كما هو معروف، لم يقبلوا كل ما وصلهم من كلام أو فعل منسوب للرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو دليل على أنهم قد بذلوا جهودا جبارة في تمحيص سنته الكريمة، وإن كنا لا نستطيع الزعم بأن هذه الجهود العبقرية لا يخرّ منها الماء؛ فهناك أحاديث منسوبة للنبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– ردها بعض العلماء، وهناك أحاديث أخرى لا

يطمئن إليها القلب، بل منها ما لا يقتنع به العقل. أما منصور فقد غالى في الرفض مغالاة رهيبة ودعا إلى اطّراح الأحاديث النبوية جملة وتفصيلا.

والغريب أنه في الوقت الذي يهاجم المحدّثين والأحاديث التي يروونها هجوما شديدا لا يُبْقِى ولا يَذَر نراه يعتمد عليهم ويصدّق رواياتهم تمام التصديق كلما ظن أنه يستطيع توظيفها في الهجوم عليهم. ومن ذلك قوله: "ويؤكد أن النبي نَهي عن كتابة غير القرآن أن الخلفاء الراشدين بعده ساروا على طريقه فنَهَوْا عن كتابة الأحاديث وعن روايتها: فأبو بكر الصدّيق جمع الناس بعد وفاة النبي فقال: "إنكم تحدّثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافا، فلا تحدّثوا عن رسول الله شيئا. فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحِلّوا حلاله، وحرِّموا حرامه"، وهذا ما يرويه الذهبي في تذكرة الحفاظ. ويروي ابن عبد البر والبيهقي أن عُمَر الفاروق قال: "إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله. وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدا. ورواية البيهقي: "لا أَلْبِس كتاب الله بشيء أبدا". وروى ابن عساكر قال: ما مات عمر بن الخطاب حتى بعث إلى أصحاب رسول الله فجمعهم من الآفاق، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله في الآفاق؟ أقيموا عندي. لا والله لا تفارقونى ما عشت. فما فارقوه حتى مات". ومنه كذلك قوله: "وعلماء الحديث يتفقون على صحة حديث "**من كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار**"، وبعضهم يضيف إليه كلمة "متعمدا": "من كذب عليّ متعمّدا فليتبوأ مقعده من النار". وهم يجعلون هذا الحديث من المتواتر، وعدد الحديث المتواتر لا يصل إلى بضعة أحاديث عند أكثر المتفائلين. والمهم أنهم، بإقرارهم بصحة هذا الحديث،

يثبتون أن الكذب على النبي بدأ في حياة النبي نفسه، وإلا ما قال النبي هذا الحديث يحذّر من الكذب عليه". ومنه أيضا قوله: "وأكثر أبو هريرة من الحديث بعد وفاة عمر، إذ أصبح لا يخشى أحدا. وكان أبو هريرة يقول: إني أحدثكم بأحاديث لو حدّثتُ بها زمن عمر لضربني بالدِّرّة (وفي رواية: "لَشَجَّ رأسي"). ويروي الزهري أن أبا هريرة كان يقول: ما كنا نستطيع أن نقول: "قال رسول الله" حتى قُبِض عمر. ثم يقول أبو هريرة: أفكنتُ محدِّثَكم بهذه الأحاديث، وعُمَرُ حَيّ؟ أما والله إذن لأيقنت أن المِخْفَقَة (العصا) ستباشر ظهري، فإن عمر كان يقول: اشتغلوا بالقرآن، فإن القرآن كلام الله". والآن ما دام ينكر الأحاديث فلماذا يستعين بها لتعضيد رأيه، وهي مزيفة في نظره ليس لها حقيقة؟ ثم إن تفكير عمر في جمع السنة معناه بكل حسم أن النبي قد ترك وراءه تلك الأحاديث، وهو ما يكذّب ما يزعمه أحمد صبحي منصور تكذيبا شديدا.

ثم ماذا نصنع بالحديث التالي، وفيه أن كلا من أبي بكر وعمر أثناء خلافته عرضت عليه قضية من قضايا الميراث، فلم يجد حكمها الشرعي في القرآن فأخذه من السنة: "عن المغيرة بن شعبة: جاءتِ الجدَّةُ إلى أبي بَكْرٍ الصِّدّيقِ رضي الله عنه فسألَتهُ ميراثَها، فقالَ: ما لَكِ في كتابِ اللَّهِ شيء، وما عَلِمْتُ لَكِ في سنَّةِ رسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئًا، فارجِعي حتّى أسألَ النّاسَ. فقالَ المغيرةُ بنُ شعبة: شهِدتُ رسولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أعطاها السُّدُس. فقال: هل معَكَ غيرُكَ؟ فقامَ محمَّدُ بنُ مسلمةَ فقالَ مثلَ ما قالَ المغيرةُ، فأنفذَهُ لَها أبو بَكْرٍ، ثمَّ جاءتِ الجدَّةُ الأخرى إلى عمرَ رضي اللَّهُ عنهُ فسألَتهُ ميراثَها، فقال: ما لَكِ في كتابِ اللَّهِ شيء، وما كانَ القضاءُ الَّذي قُضِيَ بِهِ إلّا لغيرِكِ، ولَكِنْ هو ذلِكَ السُّدسُ. فإنِ اجتمعتُما فَهوَ بينَكُما، وأيَّتُكُما خلَت بِهِ فَهوَ

لَها". وهذا حكم الحديث: (ابن حجر العسقلاني- ت ٨٥٢: موافقة الخبر الخبر ٤١٥/٢ • صحيح). "عن المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة: جاءت الجدةُ إلى أبي بكر تسألهُ ميراثها، فقال: ما لكِ في كتابِ اللهِ من شيء، وما علمتُ لكِ في سنةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئا، فارجِعي حتى أسألَ الناسَ. فسألَ الناسَ، فقال المُغيرةُ بن شُعْبَةٍ: حضرتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أعطاها السُدسَ. فقال: هل معك غيركَ؟ فقام محمدُ بن مَسلمةَ الأنصاري، فقال مثلَ ما قال المغيرةُ، فأنفذَ لها أبو بكرٍ السُدسَ. ثم جاءتِ الجدةُ الأخرى إلى عمرَ بن الخطابِ تسألهُ ميراثها، فقال: ما لكِ في كتابِ اللهِ من شيء، وما كانَ القضاءُ الذي قُضِيَ بهِ إلا لغيرِكَ، وما أنا بزائد في الفرائضِ شيئا، ولكنْ هو ذلكَ السُدسُ. فإن اجتمعتُما فيهِ فهو بينكُما، وأيتكُما خلَتْ به فهو لها" (البغوي- ت ٥١٦، شرح السنة ٤٦٤/٤ • حسن). "عن المغيرة بن شعبة: جاءَتِ الجَدَّةُ إلى أبي بكر الصِّدِّيقِ تسأَلُه ميراثَها، فقال: ما لكِ في كتابِ اللهِ مِن شيء، وما أعلَمُ لكِ في سنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئًا، فارجِعي حتّى أسأَلَ النّاسَ. فسأَل النّاسَ، فقال المُغيرةُ بنُ شُعبةَ: حضَرْتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أعطاها السُّدُسَ. فقال: هل معكَ غيرُك؟ فقام محمَّدُ بنُ مَسلَمةَ الأنصاري فقال مِثْلَ ما قال المُغيرةُ، فأنفَذ لها أبو بكرٍ السُّدُسَ. ثمَّ جاءَتِ الجَدَّةُ الأخرى إلى عمرَ بنِ الخطّابِ تسأَلُه ميراثَها، فقال: ما لكِ في كتابِ اللهِ مِن شيء، وما كان القضاءُ الذي قُضِيَ به إلّا لغيرِكِ، وما أنا بزائدٍ في الفرائضِ شيئًا، ولكنْ هو ذلك السُّدسُ. فإنِ اجتمَعْتُما فيه فهو بينَكما، وأيَّتُكما خلَتْ به فهو لها" (ابن حبان- ت ٣٥٤، صحيح ابن

حبان ٦٠٣١ • أخرجه في صحيحه)... ونكتفي بهذه الروايات الثلاث عن غيرها.

وهذا حديث آخر يرينا كيف كان عمر يسأل عما تقوله السنة كي يعرف ماذا صنع رسول الله في ذات الموقف الذي وجد هو نفسه فيه: "عن أبي موسى الأشعري: أنَّ أبا مُوسى الأَشْعَرِي اسْتَأْذَنَ على عُمَرَ بنِ الخَطّابِ رضي الله عنه، فَلَمْ يُؤْذَنْ له، وكَأَنَّهُ كانَ مَشْغُولًا، فَرَجَعَ أبو مُوسى، فَفَرَغَ عُمَرُ، فقالَ: ألَمْ أسْمَعْ صَوْتَ عبدِ اللَّهِ بنِ قَيْسٍ؟ ائْذَنُوا له. قيلَ: قدْ رَجَعَ. فَدَعاهُ، فقالَ: كُنّا نُؤْمَرُ بذلكَ. فقالَ: تَأْتِينِي على ذلكَ بالبَيِّنَةِ. فانْطَلَقَ إلى مَجْلِسِ الأنْصارِ فَسَأَلَهُمْ، فقالوا: لا يَشْهَدُ لكَ على هذا إلّا أصْغَرُنا أبو سَعِيدٍ الخُدْرِي. فَذَهَبَ بأَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي، فقالَ عُمَرُ: أخَفِي هذا عَلَيّ مِن أمْرِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ ألْهانِي الصَّفْقُ بالأسْواقِ (يَعْنِي الخُرُوجَ إلى تِجارَة)" (البخاري- ت ٢٥٦، صحيح البخاري ٢٠٦٢ • صحيح). "عن عمرَ بنِ الخطابِ: من أحيا أرضًا مَيتةً فهي لهُ" (ابن حزم- ت ٤٥٦، الإعراب عن الحيرة والالتباس ٨٣٩/٢ • ثابت). "عن عمر بن الخطاب: عن عُمَرَ في المسحِ على الخُفَّيْنِ قال عُمَرُ: فعَله رسولُ اللهِ ففعَلْناه" (الطبراني- ت 360، المعجم الأوسط ١٥٧/٢ • لم يرو هذا الحديث عن أبي بكر النهشلى إلا أبو بلال). "عن عبد الله بن عمر: عن عُمَرَ أنَّه سألَ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم عنِ اعتِكافٍ عليه، فأمَرَه أنْ يَعتَكِفَ ويصومَ" (شعيب الأرنؤوط- ت ١٤٣٨، تخريج سنن الدارقطنى ٢٣٦٠ • صحيح دون ذكر الصوم). "عن عبد الرحمن بن أبي ليلى: عَن عُمَرَ بنِ الخَطّابِ قال: فُرِضَتِ الصَّلاةُ في الحَضَرِ أرْبَعًا، وفي السَّفَرِ رَكعَتَينِ" (ابن عبد البر- ت ٤٦٤، الاستذكار ٥٣/١ • حسن).

"عنْ عُمرَ قال: لوْ وُزِنَ إيمانُ أبي بكر وإيمانُ الناسِ لرجحَ إيمانُ أبي بكر" (محمد بن محمد الغزي- ت ١٠٦١، إتقان ما يحسن ٤٦٨/٢ • إسناده صحيح). "عن إبراهيم النخعى: عن عُمرَ قال: لأَن أُخْطِئَ في الحُدودِ بالشُّبُهاتِ أحَبُّ إليّ مِن أَن أقيمَها بالشُّبُهاتِ" (السخاوي- ت ٩٠٢، المقاصد الحسنة ٥٠ • إسناده صحيح)، وذلك جريا على حديث رسول الله التالى: "عن عائشة: ادْرَءُوا الحدودَ عن المسْلِمين ما استَطَعْتُم، فإنْ وجَدْتُم لمسْلمٍ مَخرَجًا فخَلُّوا سَبيلَه، فإنَّ الإمامَ أنْ يُخطِئَ في العفْوِ خَيرٌ مِن أنْ يُخطِئَ بالعقوبةِ" (الحاكم- ت ٤٠٥، المستدرك على الصحيحين ٨٣٧٥ • صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وفي الحديث التالى نراه لا ينهي من حوله عن التحديث عن رسول الله، بل بمراعاة الإقلال من ذلك بقدر المستطاع، مؤكدا أنه معهم في ذلك: "عن قرظة بن كعب: عن عمرَ قال: أقِلُّوا الحديثَ عن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنا شريككم" (ابن حجر العسقلاني- ت ٨٥٢، فتح الباري لابن حجر ٢٥٧/١٣ • إسناده صحيح). ثم إن عبد الله بن عمر كان من كبار المحدّثين عن رسول الله وأغزرهم رواية. ولو كان أبوه ينهي عن رواية الأحاديث والاستشهاد بها لكان هو أول منصاع إلى ما يقوله أبوه أو لكان عمله هذا مثار استغراب الصحابة والتابعين جراء مخالفة الابن لنهج الأب.

وأخيرا، وإن لم يكن آخرا، ماذا لقائل إن يقول، والمعروف أن لكل من الصدّيق وعمر وعثمان وعلى رضي الله عنهم مسندا خاصا به: جَمَعَ مسند الأول أحمد بن علي المروزي، ومسند الثاني ابن كثير، ومسند ذي النورين أبو القاسم البغوي، ومسند عليٍّ يوسف أوزبك، فضلا عما لهم ولغيرهم من الصحابة من مساند في مسند أحمد بن حنبل؟ إلا أن من يُسَمَّوْن بـ "القرآنيين" (رغم

كرههم للقرآن قبل السنة) لا يفقهون ولا منطق ولا عقل عندهم. إنْ يريدون إلا القضاء على الإسلام خطوة خطوة. فقبل ذلك كانت الحرب على السنة، واليوم والغد حرب ضروس على القرآن. أما التوفيق بين نهي النبي أولا عن كتابة الأحاديث وسماحه فيما بعد بكتابتها فقد يرجع سببه إلى أن أحاديثه لم تكن تحتوي في البداية على تشريعات تذكر، فلم تكن هناك ضرورة لحفظها، لكن حين صار عليه السلام يشرع للمسلمين في المدينة بعد ما ظهرت أمة المسلمين وصارت لها دولة تحتاج إلى ترتيبات تشريعية كثيرة أذن عليه السلام للمسلمين أن يكتبوا عنه ما يقول.

كذلك لو كان النهي عن كتابة الأحاديث يعنى إهمالها تماما لما سمعنا أبا سعيد الخدري، حين قال له بعضهم: "لو كتبتم (حديث رسول الله عليه السلام) لنا فإنا لا نحفظ"، يجيبه بقوله: "لا نكتبكم ولا نجعلها مصاحف. كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يحدثنا، فنحفظ. فاحفظوا عنا كما كنا نحفظ عن نبيكم". فعدم الكتابة ليس معناها أن السنة النبوية لا تقدم ولا تؤخر، فضلا عن إنكار وجودها أصلا، بل معناها النفور من كتابتها فقط في ظروف معينة، وقد زال هذا النفور حين زالت تلك الظروف المانعة، أما حفظها والعمل بها فهو أمر واجب كما هو واضح. وهذا الخبر موجود في كتاب "تقييد العلم" للخطيب البغدادي مثلا. ومن هنا نفهم كيف أن عمر حين فكر في تقييد الأحاديث النبوية بالكتابة واستشار أصحاب رسول الله أشاروا عليه بكتابتها كما ورد في "تقييد العلم" للخطيب البغدادي. وكان هناك في عهد النبي عليه السلام "الصحيفة الصادقة" لعبد الله بن عمرو بن العاص، وصحيفة علي بن أبي طالب، وصحيفة سعد بن عبادة، وما كتبه عليه السلام لعماله وأمرائه من

تشريعات ينبغي أن يراعوها في تصرفاتهم مع المسلمين وغير المسلمين، ورسائله للملوك والأمراء من حوله، والمعاهدات التي كتبها بينه وبين اليهود والمشركين، وكتاب الزكاة والديات الذي كتبه أبو بكر الصديق... إلخ إلى أنْ تم تدوين السنة تدوينا شاملا منظما.

بل إن أحمد صبحي منصور، في تفسيره للقرآن، لا يستطيع أن يقول شيئا ذا بال دون الاستعانة بالحديث. ولنأخذ مثلا ما قاله في أخلاق النبي عليه السلام إذ وصفه المولى سبحانه بقوله: "**وإنك لعلى خلق عظيم**"، فقد أضاف أنه صلَّى الله عليه وسلَّم "كان خلقه القرآن". وهذا الكلام لم يرد في القرآن، بل هو من كلام عائشة رضي الله عنها، وقد أوردته لنا الأحاديث النبوية. ومن ذلك أيضا ما كتبه بشأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، إذ يقول: "والنبي كان عليه أن ينفذ سُنّة الله، أي شرع الله وأوامره، حتى لو كان فيها حرج. وقد نزلت آية "**ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له. سُنّةَ الله في الذين خَلَوْا من قبل، وكان أمر الله قدرا مقدورا**" في موضوع زيد بن حارثة وزواجه وطلاقه من زوجته...". والسؤال هو: كيف عرف منصور أن الكلام في الآية عن زينب، وأن زيدا هو زيد بن حارثة، وليس زيدا آخر؟ ذلك أن الآية لم تذكر إلا اسم "زيد" وحده دون اسم أبيه، وكذلك دون اسم زوجته. الواقع أنْ ليس هناك من مصدر لهذا إلا الأحاديث، فكيف أصبحت الأحاديث هنا شيئا موثوقا به بعد أن قال فيها ما قال؟ قد يقول إن القرآن يحدد زيدا بأنه من "أدعيائكم"، لكنْ مرة أخرى: من أين نعرف أن زيدا كان دَعِيّ النبي عليه السلام (أي ابنه بالتَّبَنِّى) إلا من الأحاديث النبوية؟ قد يقول: لكن هذا تاريخ، ونحن نُعْمِل عقولنا في روايات التاريخ فنقبل ما تطمئن إليه ونرد

ما سواه. وهذا هو ما أريد أن أُفْهِمه إياه: أن نُعْمِل عقولنا في الأحاديث، لكن بشرط أن نحترم منطق العقل ومنهج العلم، وأن نقلّب الأمر على كل وجوهه، وأن نتريث قبل إصدار الأحكام، وأن ننظر جيدا فيما يقوله الآخرون، وبخاصةٍ من يخالفوننا في الرأي، وهو ما لم يدخر فيه المحدّثون وسعا، وإن لم يمنع هذا من وجوب إضافة المزيد من الجهود في هذا السبيل. أما نبذ الأحاديث جملة وتفصيلا عن جهل واندفاع فهو عمل أخرق.

وهذا مثال آخر على أن منصور نفسه، رغم كل الطنطنات والتطاولات على المحدّثين والأحاديث، لا يستطيع أن يتقدم فِتْرًا في تفسير القرآن دون الاستعانة بها وبهم، مع أنه يؤكد أننا، في فهمنا للقرآن، لسنا بحاجة على الإطلاق إلى الاستعانة بالحديث أو بغيره، فقد كتب في تفسير الآيات 105-113 من سورة "النساء" ما يلي: "وباعتبار النبي بشرا فقد استطاع بعض المنافقين أن يخدعه. حدث ذلك حين سرق أحدهم درعا، وشاع بين الناس أمره، وأحس أهل اللص بالعار مما ارتكبه ابنهم فتآمروا بالليل على أن يضعوا الدرع المسروق في بيت شخص يهودي بريء. وفي الصباح جاءوا للنبي يبرئون ساحة ابنهم المظلوم. وانخدع النبي وصدّقهم ودافع عن ابنهم، وبذلك أصبح اللص بريئا، وأصبح البريء لصا. وهي قصة تتكرر في كل زمان ومكان مُوجَزها أن ينجو المجرم صاحب النفوذ، وأن يدخل البريء السجن ظلما. والقرآن الكريم ذكر القصة وحوّلها من حادثة تاريخية محددة بالزمان والمكان والأشخاص إلى قضية إنسانية عامة تتكرر في كل عصر. وفي البداية عاتب الله تعالى النبي ووجّه نظره إلى أن يحكم بالكتاب وحذّره من أن يكون مدافعا عن الخائنين: "**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك**

الله، ولا تكن للخائنين خصيما" (النساء/ 105). أي أنزل الكتاب الحق ليحكم بين الناس بما أراه الله في ذلك الكتاب، فالاحتكام للكتاب. ولأنه نسي فقد جاء الأمر بالاستغفار: "**واستغفر الله، إن الله كان غفورا رحيما**" (النساء/ 106)، ثم جاءه النهي عن الدفاع عن أولئك الخونة الذين تآمروا لتبرئة المجرم واتهام البريء: "**ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خوانًا أثيما * يَسْتَخْفُون من الناس ولا يَسْتَخْفُون من الله وهو معهم، إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول. وكان الله بما يعملون محيطا**" (النساء/ 107-108) ...".

والسؤال هو: من أين له بأن الآيات نزلت في أحد اللصوص، وأن هذا اللص قد سرق درعا، وأن أهله لما أحسوا أن أمره سينفضح ذهبوا فوضعوا الدرع في بيت يهودى... إلخ؟ ترى هل هناك من مصدر آخر اعتمد عليه أحمد صبحي منصور هنا عدا الحديث؟ أما قوله إننا، في فهمنا للقرآن الكريم، لا نحتاج إلى أي شيء آخر خارج نصوصه، فها هو ذا: "كتاب الله هو الكتاب المبين بذاته، وآياته موصوفة بالبينات، أي التي لا تحتاج في تبيينها إلا لمجرد القراءة والتلاوة والتفكر والتدبر فيها. والذي جعل الكتاب مبينا وجعل آياته بينات هو رب العزة القائل: "**بعدما بيَّنّاه للناس في الكتاب**" (البقرة/ 159)، والقائل عن كتابه: "**ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكِر**" (القمر/ 17)، "**فإنما يسَّرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قومًا لُدًّا**" (مريم/ 97)، "**فإنما يسَّرناه بلسانك لعلهم يتذكّرون**" (الدخان/ 58)، أما قوله هذا فجهل فاحش، فمعروف أن أي نص يحتاج إلى وسائل تعين على فهمه، كالمعرفة باللغة التي ينتمي إليها، والمعرفة بالمعجم الخاص به، والمعرفة بالظروف التي

كُتِب أو سُجِّل أو أُوحِيَ فيها، والمعرفة بالمصدر الذي جاء منه... إلخ. والقول بغير هذا هو كلام لا يستحق أن نصغي آذاننا له. ولقد رأينا كيف أن منصور نفسه لم يستطع أن يفهم الآيات القرآنية إلا بالاستعانة بأسباب النزول، وهي جزء من الأحاديث النبوية.

وهو يرى أن أحاديث رسول الله وتصرفاته إنما هي انعكاس لثقافات عصره وبيئته يمكن ألا تتفق مع القرآن ولا ينبغي أن نُولِيَها أي اعتبار. وهذا نص ما قاله: "ونحن، وإن كنا نعتبر القرآن هو المصدر الوحيد لسنة النبي وشريعة الرحمن ودين الله الأعلى، فإننا نضع تلك الروايات الحديثية موضعها الصحيح، وهي أنها تاريخ بشرى للنبي وللمسلمين وصدًى لثقافتهم وأفكارهم سواء اتفقت أم لم تتفق مع القرآن". معنى ذلك ببساطة أن كلامه هو التفسير الصحيح للقرآن، ولا يمكن أن يكون انعكاسا لثقافة عصره وبيئته، أما فهم الرسول للقرآن فمن الممكن ألا يتفق مع كتاب الله؛ لأنه لا يزيد عن أن يكون انعكاسا لثقافة عصره وبيئته! ومن هنا نراه يقول إنه لا ينبغي أن نتأسى بالرسول إلا في كتاب الله، وكأن الرسول يمكن أن يتصرف أو يقول شيئا يخرج فيه عن كتاب الله! وهذا نص كلامه: "إن الاقتداء والتأسي يعنى الاتباع، ولا يكون الاقتداء والتأسي على إطلاقه إلا بكتاب الله. والله تعالى كما أمرنا بالتأسي برسول الله محمد في موقف معين فإنه أمر النبي نفسه بالاقتداء بهدي الأنبياء السابقين فقال: "أولئك الذين هدى اللهُ فبهُداهم اقْتَدِهْ"، فلم يقل تعالى: "فبِهِم اقْتَدِهْ"، وإنما قال: "فبِهُدَاهم اقْتَدِهْ"...".

أما الصلاة والزكاة والصيام، وهذه الشعائر مجرد أمثلة، فإن أحدا لا يستطيع أن يؤديها دون الاستعانة بالسنة النبوية المشرفة. لنأخذ مثلا نسبة

الزكاة في الإسلام، فهي لم ترد في القرآن، بل في الأحاديث الشريفة. كما زعم أن الصلاة على النحو الذي نؤديها به الآن في الإسلام قد انحدرت إلينا من ديانة إبراهيم. يريد أن يقول إنه ليس للسُّنّة المحمدية فضل في هذا. لكن لو كان الأمر كما يقول لكان معناه أن الجاهليين كانوا يصلّون بصلاتنا، ويقرءون فيها بقرآننا، ويصلّون على نبينا قبل أن ينزل القرآن من السماء ويُبْعَث محمد عليه السلام بدين جديد. فهل هذا صحيح؟ وهل كان إبراهيم عليه السلام يقرأ الفاتحة مثلنا... إلخ؟ بل هل كان العرب الجاهليون يعرفون الصلاة أصلا بهذا المعنى؟ لقد كانت الصلاة في حياة العرب آنذاك تعنى الدعاء مطلقا، أما الأفعال والأقوال على تلك الهيئة المخصوصة التي نطلق عليها في دين محمد: "الصلاة" فلم يكونوا يعرفونها، وإلا لجاءت في الشِّعْر الجاهلي بهذه الدلالة.

ثم إن هناك آيات قرآنية لا يمكن فهمها، أو لا يمكن فهمها فهما سليما أو دقيقا، إلا إذا عُرِفَ سبب نزولها مما ذكرته الأحاديث، وإن لم ندّع لهذه الروايات العصمة دائما. ونضرب على ما نقول الأمثلة التالية، وقد اعتمدتُ فيها على كتاب "أسباب النزول" للواحدي النيسابوري: ففي الآية 104 من سورة "البقرة" نقرأ قوله تعالى: "**يا أيها الذين آمنوا، لا تقولوا: راعِنَا، وقولوا: انْظُرْنا...**"، فكيف يا ترى يمكن أن نفهم ما فيها من الأمر والنهي دون أن نعرف ما جاء في سبب نزولها مما هو مرتبط بسيرة النبي عليه السلام وأحاديثه؟ "قال ابن عباس في رواية عطاء: وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها (أي يستعملون في تخاطبهم كلمة "راعنا")، فلما سمعتهم اليهود يقولونها للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم أعجبهم ذلك، وكان "رَاعِنَا" في كلام اليهود سبًّا قبيحًا، فقالوا: إنا كنا نسبّ محمدًا سرًّا. فالآن أَعْلِنوا السبّ لمحمد لأنه من كلامهم.

فكانوا يأتون نبي الله صلَّى الله عليه وسلَّم فيقولون: يا محمد، رَاعِنَا. ويضحكون، ففطن بها رجل من الأنصار، وهو سعد بن عبادة، وكان عارفا بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله، عليكم لعنة الله! والذي نفس محمد بيده لَإِنْ سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه. فقالوا: ألستم تقولونها له؟ فأنزل الله تعالى: **يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنوا لا تَقولوا: رَاعِنَا**... الآية". ولزيادة الأمر إيضاحا أذكر أنى قرأت منذ فترة أن الكلمة في العبرية مأخوذة من "الرعونة". ومن هنا نهي الله سبحانه المسلمين عن استعمالها في خطابهم لسيد الأنبياء والمرسلين حتى لا يعطوا الأوغاد فرصة للسخرية منه ومنهم بخباثتهم وقلة أدبهم المعروفة عنهم.

كذلك كيف يمكن فهم قوله تعالى في الآية 187 من ذات السورة: "**وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**" دون أن نطلع على الرواية الخاصة بسبب نزولها حتى لا نصنع كما كان بعض الصحابة يصنعون في البداية؟ وهذه هي الرواية: "أخبرنا سعيد بن محمد الزاهد قال: أخبرنا جدي قال: أخبرنا أبو عمرو الحيرى، قال: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا ابن أبي مريم قال: أخبرنا أبو غسان، قال: حدثني أبو حازم عن سهل بن سعد قال: نزلت هذه الآية: "**وَكلوا وَاشْرَبوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكم الْخَيْط الأَبْيَض مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ**" ولم ينزل "مِنَ الْفَجْرِ". وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله تعالى بعد ذلك "مِنَ الْفَجْرِ"، فعلموا أنه أنما يعني بذلك الليل والنهار. رواه البخاري عن ابن أبي مريم، ورواه مسلم عن محمد بن سهل عن أبي مريم".

وبالمثل كيف يمكن فهم قوله تعالى: "**يا أيها الذين آمنوا، لا يحلّ لكم أن ترثوا النساء كَرْهًا...**" (النساء/ 19) دون أن نعرف أن الميراث هنا ليس أن نرث ما تركه هؤلاء النسوة من مال، بل أن يرثهن الرجل أنفسهن كأنهن متاع حسبما وضّحت الرواية التالية؟ "قال المفسرون: كان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته فألقى ثوبه على تلك المرأة، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره. فإن شاء أن يتزوّجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوّجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئًا، وإن شاء عَضَلها وضارّها لتفتدى منه بما ورثت من الميت أو تموت هي فيرثها. فتوفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري، وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له: حصن (وقال مقاتل: اسمه قيس بن أبي قيس)، فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها: يضارّها لتفتدى منه بمالها. فأتت كبيشة إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقالت: يا رسول الله، إن أبا قيس تُوُفِّيَ، وورث ابنُه نكاحي. وقد أضرّ بي وطوَّل عليَّ، فلا هو ينفق عليَّ، ولا يدخل بي، ولا هو يخلِّي سبيلي. فقال لها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله. قال: فانصرفتْ وسمعت بذلك النساء في المدينة، فأتين رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقلن: ما نحن إلا كهيئة كبيشة، غير أنه لم ينكحنا الأبناء، ونَكَحَنا بنو العم. فأنزل الله تعالى هذه الآية"[26].

وإلى القارئ هذا المثال كذلك من رواية "جونتانامو" للدكتور يوسف زيدان، إذ يفسر قوله تعالى: "**وإن خفتم ألا تُقْسِطوا في اليتامى فانْكِحوا ما**

طاب لكم من النساء مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاع..." (النساء/ 3) على أن المقصود هو أمر الله كافل اليتيمات بالزواج من واحدة منهن إلى أربع، متجاهلا سبب نزول الآية، الذي يبين أن معناها هو العكس تماما مما يقول: فعن "عروة بن الزبير أنه سأل عائشة زوج النبي صلَّى الله عليه وسلَّم عن قول الله تبارك وتعالى: "**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ في الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ من النِّسَاءِ...**". قالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه في ماله، فيعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يُقْسِط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهُوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهنّ ويبلغوا بهنّ أعلى سنتهنّ في الصداق، وأُمِرُوا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن"، بمعنى "اتركوهنّ فقد أحللت لكم أربعا من غيرهن"[27]. ولو كان المعنى كما زعم د. زيدان لقال سبحانه: "فانكحوا ما طاب لكم منهن (أي من اليتيمات) مثنى وثلاث ورباع". ذلك أن الله أراد أن يبعد الكفلاء عن اليتيمات اللاتي كانوا يكفلونهن ويطمعون في أموالهن، ومن ثم يريدون الزواج منهن حتى تكون تلك الأموال تحت تصرفهم وحتى لا يدفعوا فيهن مهرا كبيرا، لا أنه يريد منهم أن يتزوجوهن. ومن هنا نستطيع أن نفهم ما يدعو إليه بعض النقاد الحداثيين من الدخول إلى النص مباشرة دون أن نلقي بالا لأي شيء خارجه من حياة صاحبه أو ظروفه أو السياق الذي كتب فيه ما كتب، وبالنسبة للقرآن ألا نرجع إلى أسباب النزول ولغة العرب وأسلوب الكتاب العزيز وتفسيرات المفسرين... إلخ بحيث يستطيع الكاتب أن يقول ما يريد تمريره من أفكار خطيرة دون معقِّب. كذلك فمقتضى كلام زيدان أنه، لو كان في كفالة الرجل أربع يتيمات

أخوات، وهذا طبعا ممكن جدا، فمن حقه التزوج بهن جميعا. وهذا يناقض ما يقول به الإسلام، الذي يحرم الجمع بين أختين اثنتين، فما بالنا بأربع؟

أما أن في الأحاديث التي قالها النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ما يمكن أن يكون مناقضا للقرآن أو يؤدي بمن يصدّقه ويعمل على احتذائه إلى البوار، فالسؤال هو: ماذا يا ترى في الحديث الذي ينص على أن العلماء هم ورثة الأنبياء، أو الحديث الذي يؤكد أن فضل العالم على العابد كفضل البدر على سائر الكواكب، أو الحديث الذي يقول إن مداد العلماء يُوزَن بدماء الشهداء، أو ذلك الذي ينبئنا بأن إماطة الأذى عن الطريق أو أن تبسُّم الواحد منا في وجه أخيه صدقة، أو ذلك الذي يستحثنا ويغرينا بالتفكير المستقل القائم على أساس المنطق والعقل والإحاطة بالموضوع من كل أطرافه والتعمق فيه، ويبشّرنا بما لا وجود له في أي نظام تربوي أو فلسفي أو سياسي من أن المجتهد مأجور حتى لو أخطأ في اجتهاده، أو الذي ينبهنا فيه عليه السلام إلى أن الصدقة في السر تطفئ غضب الرب، أو أن اليد الخشنة من أثر العمل والكدّ هي يد يحبها الله ورسوله، أو أن العين التي بكتْ من خشية الله أو باتت تحرس في سبيل الله لا تَمَسّها النار أبدا، أو أن من رُزِق من البنات ولو بواحدة فأحسن تربيتها وزوّجها دخل الجنة، أو أن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، أو أن السِّقْط يأخذ بيد أبويه في موقف الحساب ويراغم ربه حتى يُدْخِلهما الجنة، أو أن أحق الناس بصحبة الابن هي أمه ثم أمه ثم أمه ثم أبوه، أو أن معاشرة الرجل لزوجته حسنة من الحسنات يُؤْجَر عليها من الله وليست مجرد شهوة تُشْبَع، أو أن اتباع السيئة الحسنة يمحوها فلا يحاسَب الإنسان عليها، أو أنه سبحانه قد رفع عنا السهو والنسيان وما استُكْرِهْنا عليه، أو أن الله قد

خلق لكل داءٍ دواء، أو قول الرسول الكريم لرجل أخذه الخوف منه: هَوِّنْ عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة، أو قوله: لا تُطْرُوني كما أَطْرَتِ النصارى عيسى بن مريم، أو قوله: كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، أو تسبِّحون وتحمِّدون وتكبِّرون دُبُرَ كل صلاة ثلاثا وثلاثين، أو من آذى ذِمّيًّا فأنا خصيمه يوم القيامة، أو إن من الذنوب ذنوبا لا يكفِّرها إلا العمل، أو ادرءوا الحدود بالشبهات، أو إنما الصبر عند الصدمة الأولى، أو اسْتَوْصُوا بالنساء خيرا، أو خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، أو ليس الإيمان بالتمني، ولكنْ ما وَقَر في القلب وصدّقه العمل، أو إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، أو إن الشيطان لَيَجْرِي من ابن آدم مجرى الدم في العروق، أو إن الحياء من الإيمان، أو إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَ اثنان دون الثالث، أو إذا لم تستح فاصنع ما شئت، أو إذا بُلِيتم فاستتروا، أو إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، أو إن ذا الوجهين يُكْتَب عند الله كذابا، أو اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعْمِل عليكم عبدٌ حبشيٌّ كأن رأسه زبيبة، أو إن النظافة من الإيمان، أو إن الله جميل يحب الجمال، أو ما لكم تدخلون عليَّ قُلْحًا؟ استاكوا، أو إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، أو نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع، أو ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شَرًّا من بطنه، أو رَضِينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ نبيًّا ورسولا، أو اللهم أسلمتُ وجهي إليك، وفوَّضْتُ أمري إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا مَلْجَأَ ولا مَنْجَى منك إلا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلتَ، ونبيّك الذي أرسلتَ، أو لا رهبانية في الإسلام، أو أَنْفِقْ ولا تخش من ذي العرش إقلالا، أو تَعِسَ عبدُ

الدينار! تَعِسَ عبدُ الدرهم! أو ما نقص مالٌ من صدقة، أو إن طَلَب العلمِ فريضةٌ على كل مسلم ومسلمة، أو اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد، أو إن من خَرَجَ في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع، أو إن مَنْ فرّج عن مسلمٍ كُرْبة من كُرَب الدنيا فرّج الله عنه كُرْبة من كُرَب يوم القيامة، أو سبعةٌ يُظِلّهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله...، أو إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته، أو من لا يشكر الناس لا يشكر الله، أو دخلت امرأةٌ النار في هِرّة حَبَسَتْها: لا هي أطعمتْها ولا هي تركتْها تأكل من خَشَاش الأرض، أو اتّقُوا النار ولو بشِقّ تمرة، أو إن المنبتّ لا أرضًا قطع ولا ظَهْرًا أبقَى، أو من بات كالًّا مِنْ عمل يده بات مغفورًا له، أو إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يُتْقِنه، أو إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فَسِيلَةٌ فلْيَغْرِسْها، أو أَلْقِ السلام على من تعرف ومن لا تعرف، أو لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، أو اطلبوا الرزق بعزة الأنفس، أو إن الغِنَى غنى النفس، أو لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلّ نفسه، أو ليس الشديد بالصُّرَعَة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب، أو قوله عليه السلام لشاب خطب فتاة: انظر إليها، فإنه أَحْرَى أن يُؤْدَم بينكما، أو قوله: لا تُنْكَح البِكْر حتى تُسْتَأْذَن ولا الأيِّم حتى تُسْتَأْمَر، أو يسّروا ولا تعسّروا، أو مَنْ أَمّ في الصلاة فلْيخفّف، فإن منكم الضعيف وذا الحاجة، أو أَحِبّ لأخيك ما تحبّ لنفسك، أو إخوانُكم خَوَلُكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فلْيُطْعِمْه مما يَطْعَم، ولْيُلْبِسْه مما يلبس، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم، أو اتقوا الله في الضعيفين: النساء وما ملكت أيمانكم، أو رفقًا أَنْجَشَةُ بالقوارير، أو... أو...

أو... إلخ مما لا يكاد ينتهي من التوجيهات والتشريعات والأدعية النبوية العبقرية التي أكرمنا الله بها والتي ذكرتُ ما ذكرتُه منها من محفوظ الذاكرة منذ الصبا، وبالمعنى في بعض الأحيان، وأرجو ألا أكون قد أخطأتُ في شيء منه؟

وبالمثل يتصور د. منصور أن ثم تناقضا بين أمر القرآن لزوجات الرسول بالقرار في بيوتهن وبين اصطحاب الرسول لهن في غزواته. وهو يوضح ذلك بأنه في غزوة الأحزاب مثلا في العام الخامس من الهجرة نزلت سورة "الأحزاب"، وفيها الأمر لنساء النبي بأن يمكثن في البيت ولا يخرجن منه: "**وقَرْنَ في بيوتكن، ولا تَبَرَّجْنَ تبرُّج الجاهلية الأولى، وأَقِمْن الصلاة وآتِين الزكاة، وأَطِعْن الله ورسوله. إنما يريد الله لِيُذْهِب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهِّركم تطهيرا**"، متسائلا: "كيف يأمرهن الله بالبقاء في البيت، ويأتي النبي فيصطحبهن في غزوة بني المصطلق فيما بعد؟ لقد كان ترك النساء في المدينة بعيدا عن الغزوات عادة إسلامية حرص عليها النبي والمسلمون بحيث لم يكن يتخلف عن الغزو إلا النساء والأطفال والشيوخ غير القادرين. وحين تخلف المنافقون عن الخروج مع النبي في إحدى معاركه الدفاعية نزل القرآن يعيّرهم ويسخر منهم بأنهم رَضُوا بأن يتخلفوا مع النساء والصبيان: "**رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالف**" (الأعراف/ 87). فهل من المعقول أن يصطحب النبي زوجاته معه عرضة لخطر الحرب بينما تبقى بقية النساء آمنات في المدينة؟".

وردا على ذلك نقول: ليس معنى أمر القرآن نساء النبي بالاستقرار في بيوتهن أنه يجب عليهن ألا يخرجن البتة منها، وإلا كان معناه أنه لا يجوز لهن الذهاب للمساجد، ولا لزيارة أهليهن، أو للمشاركة في أي واجب اجتماعي

وما إلى ذلك. ولقد كان الرسول عليه السلام كريما سمحا مع زوجاته كما هو مع الناس أجمعين، فلا يُعْقَل أن يتعامل معهن بمنطق العامة الذي يقول إن المرأة لا تخرج من بيت زوجها إلا إلى القبر! إن كل ما هنالك أن القرآن يريد لزوجات المصطفى أن يبتعدن بقدر الإمكان عن زحام الحياة حتى يَظْلَلْن في مكانهن الرفيع ولا يخوض الناس في أحاديثهن وأخبارهن كما يفعلون مع كثير من النساء في قيلهم وقالهم، لا ألّا يخرجن من بيوتهن بتاتا! ومن ثَمَّ فإذا صحبهن الرسول في غزواته صحبهن على نفس الوضع الذي يصونهن عن العيون والألسنة.

ولقد كان النساء يشاركن في الغزوات، فيسقين الجند ويضمدن المجروحين مثلا. فعن أنس بن مالك: "**كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يغزو بأمِّ سُلَيْمٍ ونسوةٍ معها من الأنصارِ يَسْقِين الماءَ ويُداوين الجرحَى**"[28]، وعن ابن عباس: "**كانَ رسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يغزو بالنِّساءِ فيُداوينَ الجَرحى، ولم يَكُن يضربُ لَهُنَّ بسَهْمٍ، ولَكِن يُحْذَيْنَ مِنَ الغَنِيمةِ**"[29]، وعن الربيع بنت معوذ بن عفراء: "**كُنَّا نغزو مع النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، فنَسْقِي القومَ ونَخْدُمهم ونَرُدُّ الجرحى والقتلى إلى المدينةِ**"[30]، وعن أم عطية نسيبة الأنصارية: "**غزوتُ مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم سبعَ غزواتٍ أخلفهم في رِحَالِهم، فأصنع لهم الطعامَ وأُداوى الجَرحى وأقوم على المَرْضَى**"[31]، وعن أم زياد الأشجعية: "**خرجتُ مع رسول اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في غزوة خيبر سادس ست نسوة، فبلغ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فبعث إلينا، فجئنا فرأينا فيه الغضب، فقال: مع من خرجتن؟ وبإذن من خرجتن؟ فقلنا: يا رسول اللهِ، خرجنا نغزل الشعر ونعين به في سبيل**

الله، ومعنا دواء الجرحى، ونناول السهام ونسقى السويق. فقال: قمن. حتى إذا فتح الله عليه خيبر أسهم لنا كما أسهم للرجال. قال: قلت لها: يا جدة، وما كان ذلك؟ قالت: تمرا"[32]. ومعنى هذا أن أحمد صبحي منصور يحشر أنفه فيما لا يحسن، ويخترع من عنده الأحاديث اختراعا، ثم يستدير فيتهم البخاري ومسلما وغيرهما من جامعي الأحاديث بدائه هذا العياء.

كذلك يرى أحمد صبحي منصور أن هناك تناقضا بين الأحاديث التي تحضّ على التبكير في الذهاب للمسجد يوم الجمعة وتلك التي تنصح المسلم بألا يهرول عندئذ، حتى لو كان متأخرا بعض الشيء. وهو تناقض غير موجود إلا في مخيلته. قال: "وتأتي أحاديث كثيرة تحض على سرعة التبكير بالذهاب لصلاة الجمعة، وتملأ هذه الأحاديث صفحات من البخاري، ثم يتبعها حديث ينقضها جميعا يقول: "**إذا أُقِيمَت الصلاة فلا تأتوها تسعَوْن، وأْتُوها تمشون عليكم السكينة، فما أدركتم فصلّوا، وما فاتكم فأتمّوا**" (البخاري/ الجزء الثانى/ ص3، 4، 8، 9)". والحق أن المعنى في هذه الأحاديث واضح تمام الوضوح، وهو أفضلية التبكير. لكن ما العمل لو حدث أنْ تأخَّر المصلي لسبب أو لآخر في الذهاب إلى صلاة الجمعة؟ أيجرى في الشارع فيظن الناس به الظنون أو يضحكون منه أم يسير في احترام واطمئنان على النحو الذي يليق بالشعيرة الكريمة؟!

ونصل إلى علامات الساعة وشغب أحمد صبحي منصور بشأنها على عادته. يقول: "كل الأحاديث التي رواها البخاري وغيره، وفيها ينسبون للنبي أقاويل عن علامات الساعة وأحداثها والشفاعة وأحوال القيامة، كلها أحاديث تناقض القرآن صراحة. فالقرآن يؤكد في أكثر من موضع بأن النبي لا يعلم

الغيب، ولا يعلم شيئا عن الساعة وموعدها وتفصيلاتها. وقد عرضنا لذلك فيما سبق، وأتينا بالآيات الكثيرة في هذا الموضوع، ويكفينا منها قوله تعالى للنبي: "**قل: ما كنتُ بِدْعًا من الرسل، وما أدري ما يُفْعَل بي ولا بكم. إنْ أتَّبِعُ إلا ما يُوحَى إليّ**" (الأحقاف/ 9). وإذا كان النبي لا يعلم ماذا سيحدث له أو لغيره فكيف ننتظر منه أن يتحدث عن أحوال القيامة وشفاعته أو عدم شفاعته؟ ثم ألا يكفينا قوله تعالى في عدم علم النبي بالغيب: "**قل: لا أقول لكم: عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب**" (الأنعام/ 50)، "**قل: لا أملك لنفسي نفعا ولا ضَرًّا إلا ما شاء الله، ولو كنتُ أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مَسَّنِيَ السوء. إنْ أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون**" (الأعراف/ 188)..."؟

والواقع أني لا أدري وجه التناقض بين الحديث والقرآن في الموضوعات المذكورة: فليس في الأحاديث أن النبي يعلم الغيب أبدا، وإن كان لله سبحانه أن يكشف ستر الغيب لرسوله متى أراد لحكمة يعلمها جلّ شأنه. وقد يكون ذلك في القرآن كالإخبار بأن الروم ستنتصر على الفرس في بضع سنين بعد أن لاقت الهزيمة المرة على أيديهم لتوّها، وكالتنبؤ بأن الجمع سيُهْزَمون ويُوَلُّون الدُّبُر، وهو ما تحقق في بدر، وكإطلاعه نبيَّه في غزوة الحديبية على أنه سيدخل مكة هو والمسلمون لأداء العمرة، مما تحقق العام الذي تلا ذلك... فهذه آيات قرآنية لا يستطيع منصور أن يكذّبها البتة، أما في الأحاديث فهناك نبوءةُ غزوةِ الأحزاب الخاصّةُ بفتح فارس والروم، وهناك النبوءة الخاصة بفتح القسطنطينة، وهناك النبوءة الخاصة بتداعي الأمم على المسلمين كما تتداعى الأَكَلَة إلى قصعتها لا من قلة بل من ذلة... وكل هذا قد تحقق كما أنبأ به النبي العظيم. مرة أخرى نحن لا نقول إنه صلَّى الله عليه وسلَّم كان يعلم

الغيب، بل نقول إن الله قد يطلعه على بعض أمور ذلك الغيب لحكمة من الحكم، وهو ما ضربنا له الأمثلة لتوِّنا من كتاب الله وسنة رسول الله. وفي القرآن الكريم نقرأ الآيات التالية: "**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك**" (آل عمران/ 44) و(يوسف/ 102)، "**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك. ما كنتَ تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا**" (هود/ 49)، "**عالِمُ الغيب فلا يُظْهِر على غيبه أحدا * إلا مَنِ ارتضى من رسول**" (الجن/ 27)، وهي من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى أي تعليق. وإذن فليس من تناقض بين الأمرين كما يعمل د. أحمد صبحي منصور على إيهام القراء ليُفْقِدهم الثقة في أحاديث النبي الكريم! ثم إن الرسول لم يحدد للساعة موعدا، بل ساق علامات عامة، وهذه العلامات قد تستغرق قرونا فلا يعرف الناس وقتئذ متى تقوم الساعة، ولكن يمكن العقلاءَ منهم أن يعتبروا ويصلحوا من فسادهم قبل فوات الأوان، فلعلهم ينجون.

ولا تقتصر أهمية الحديث على ما ذكرنا؛ إذ كثيرا ما تعالج الأحاديثُ النبويةُ أمورًا لم يتطرق إليها القرآنُ كالسواك، وتمشيط الشعر، وغُسْل الجمعة وخطبتها، وإماطة الأذى عن الطريق، وشفاعته صلى الله عليه وسلم هو بالذات لا الشفاعة بوجه عام، واكتساب المسلم أجرا لمعاشرته زوجته، والسبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله وشروط استجابة الدعاء، وطوائف الأعداء الذين ينبغى تركهم في حالهم دون التعرض لهم بحال أثناء الحرب، والطرق التي يجب تجنبها في البيع والشراء... إلخ، وهو غزير. وإلى جانب هذا هناك أمور كثيرة تناولها القرآن تناولا مجردا، ثم تابعت الأحاديث وصفها وتصويرها بقلم الواقعية كما هو الحال في كلام القرآن عن العلماء: "**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**" (المجادلة/ 11)، "**قل: هل يستوي**

الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟" (الزمر/ 9)، "**وقل: ربِّ، زدني علما**" (طه/ 114)، وكلام الأحاديث في هذا الصدد كقول الرسول –صلّى الله عليه وسلّم– : "**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**"[33].

ثم كيف نعرف شخصية النبي العقلية والنفسية والخلقية تفصيلا لو لم تكن هناك أحاديث؟ الواقع أننا لو أهملنا الأحاديث كما يريد منا أحمد صبحي منصور لم نجد في القرآن ما يساعدنا على أن نبصر صورة النبي عليه السلام خلال حياته اليومية: في البيت، وفي السفر، ومع أصحابه، وفي الحرب، وفي الصلاة، وفي الصيام، وعند تناول الطعام، وفي تعامله مع الأطفال والنساء، وفي نومه، وفي استيقاظه، وما يتعلق بالأطعمة التي يحبها، وتلك التي لا يقبل عليها، وفي تعليقه على الأحداث، وفي توجيهه لهذا الصحابي أو ذاك، وفي كلامه عن إخوانه الأنبياء السابقين، وفي تفرقته بين شريعته وشرائعهم، وفي ردود أفعاله تجاه الوقائع التي تحدث حوله... مما لا نجد له أثرا في القرآن، الذي يكتفي بالخطوط العامة دون إيراد تفاصيل، علاوة على أن هناك أشياء لم يقترب منها القرآن قط. ثم ألم يعلن منصور أن الرسول هو المثال الأعلى؟ أليس من الطبيعي إذن أن يحرص أتباع أي مثل أعلى على معرفته ومعرفة كل ما يتعلق به؟ فكيف يستطيع المسلمون ذلك إذا ألغينا الأحاديث؟ بل إن

وصف ملامح الرسول مثلا وطريقته في الكلام والمشي والنوم وأداء العبادات ليس لها وجود في كتاب الله، لكنها متاحة في الحديث.

إن رجال الحديث إنما صنعوا ما صنعوه من جمعهم لكلام رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم– وأوصافه ورواية أفعاله بدافع الحب له صلَّى الله عليه وسلَّم، والإعجاب به والحرص على معرفة الكيفية التي نفهم بها الدين ونطبقه، بخلاف من يكرهه صلَّى الله عليه وسلَّم ويكره دينه ويتظاهر بأنه إنما يريد تنقية التوحيد مما شابَهُ من خَبَث الأحاديث النبوية، أستغفر الله. الواقع أن مثل هذا المنطق هو منطق الشياطين. ترى هل هناك من يكره أن يعرف رسولَه عن قرب ويعرف ماذا قال وماذا فعل؟ إن المحب ليحرص على أن يستعيد كل كلمة قالها محبوبه وكل تصرف أتاه وكل موقف اتخذه. وما من أمة في الأرض إلا وتتفاني في تخليد ذكرى عظمائها. وعلى هذا النهج تسير كل الأمم منذ كانت هناك أمم. فما بالنا إذا كان هذا العظيم هو نبيها؟ وبالله إذا لم نحرص على أحاديث رسول الله فعلى أحاديث مَنْ نحرص؟!

نخرج من هذا بأننا لو هدمنا السنة النبوية هدمنا شطرا كبيرا من الإسلام. إنها ليست شيئا إضافيا أو كماليا، بل هي جزء أصيل من الدين. وفي أقل القليل هي الصورة التطبيقية للإسلام في العصر الأول يهتدي بها المسلمون على مدى الدهر، ويَرَوْن كيف واجه الرسول مشاكل عصره ومجتمعه، فنتصرف كما تصرف، ونفكر كما فكر، وننحو كما نحا... وهكذا. ومَنْ أَوْلَى مِنْ محمد –صلّى الله عليه وسلّم– بأن نتخذ منه قدوتنا وأسوتنا، وهو الرسول الذي تلقى الوحي وأُمِر بتبليغ الدين، وكانت السماء ترعاه وتراعيه وتصوبه وتباركه، فضلا عن أنها قد أمدته بمواهب عظيمة لا تتاح للبشر العاديين ولا

حتى لكثير من النبيين والمرسلين؟ نعم السنة جزء أصيل من الدين، أما ما يقوله الفقيه الحنبلي أبو الحسن البربهاري (ت329هـ) من جعل السنة هي الإسلام، والإسلام هو السنة، وكأنه لا وجود للقرآن، مع أن السنة لا وجود لها أصلا إلا بالقرآن، وهي تابعة له وليست مستقلة عنه، فضلا عن أن تكون هي الإسلام كله، فهو كلام لا يمكن أن نوافقه عليه. يقول: "اعلموا أن الإسلام هو السنَّة، والسنَّة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلَّا بالآخَر". وهذه مغالاة لو سمعها الرسول لأنكرها إنكارا عنيفا. ويجري هذا المجرى قول الأوزاعي (ت157هـ): "الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب"، وقول يحيى بن أبي كثير: "السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ على السنة". وقد علّق أحمد بن حنبل على هذا بقوله: "ما أَجْسِرُ على هذا أن أقوله، ولكني أقول إن السنة تفسر الكتاب وتبينه"[34].

ونحن إذا نظرنا مثلا في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام لنرى موقفه العملي من العلم فلسوف نقف ذاهلين أمام ما صنعه، وهو الأُمِّيّ، عقب الانتصار في غزوة بدر حين وقع في يد المسلمين عشرات الأسرى من كفار قريش؛ إذ عرض عليهم أن يطلق سراح كل من يقوم منهم بتعليم عشرة من صبيان المسلمين في المدينة القراءة والكتابة دون فدية. وقد كان هذا الصنيع نقطة الانطلاق إلى نشر التعليم بين المسلمين؛ إذ كان عدد القارئين والكاتبين في المجتمع الجاهلى جِدَّ ضئيلٍ كما هو معروف. وجدير بنا أن نتوقف نحن بدورنا إزاء هذا العمل العبقرى من رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ ذلك العمل الذي كان وراء انتشار حركة التعليم بين أفراد الأمة الناشئة، إلى جانب إلحاحه

صلَّى الله عليه وسلَّم على أن طلب العلم فريضة على كل مسلمة ومسلمة، وهو ما يتميز به عن سائر الأنبياء.

ووجه العبرة في هذا أن العرب، رغم انتشار الأمية بينهم في الجاهلية انتشارا واسعا، سرعان ما تخلصوا منها بعد اعتناقهم الإسلام، وقَضَوْا عليها، وأَضْحَوُا الأمة الأولى للعلم والثقافة والفكر في العالم أوانذاك. إنه، عليه الصلاة والسلام، لم يؤلف اللجان، ولم يخصص الميزانيات، ولم يستكثر من بناء المدارس والجامعات لهذا الغرض؛ إذ كان ذلك صعب التنفيذ في تلك الظروف إن لم يكن مستحيله، بل اكتفى بالمتاح بين يديه، وهو أقل من القليل. ومع ذلك فإن هذا القليل الذي يكاد يقرب من حد العدم قد أتى بتلك الثمار المدهشة، وهي ثمار لا يمكن المقارنة بينها وبين ما تحقق من نتائج في ذلك الميدان بطول البلاد العربية وعرضها منذ عصر النهضة الحديثة التي بدأت قبل أكثر من قرنين من الزمان مع توفر الإمكانات الهائلة التي لم يكن الصحابة يحلمون بواحد على المليون منها. لقد كانوا يتلقَّوْن تعليمهم مثلا في المسجد، والمساجد لا تكلف الدولة شيئا يذكر. ولم يستقدم عليه الصلاة والسلام لصبيان المدينة خبراء تربويين ولا مدرسين من الخارج بالعملة الصعبة، بل اعتمد على الأسرى الذين لو كان قد استبقاهم عنده دون عمل لكلفوه أموالا طائلة، لكنه بثاقب نظره وإلهامه العظيم افترع هذا الحل العبقري الذي أتى بأعظم النتائج دون أن يدفع فيه شيئا على الإطلاق.

وللبروفسير ن. ستيفن (Prof. N. Stephen) كتاب بعنوان: "Muhammad and Learning" تحدث فيه بأسلوب مشدوه عن أحاديث الرسول الكريم ودوره في مجال التعليم، مستغربا أن يتنبه رجل مثله يعتزي إلى

أمةٍ باديةٍ أُمّيّةٍ تعيش في القرن السابع الميلادي إلى هذا الجانب من جوانب الحياة، وأن يكون له تلك الآراء التقدمية والمواقف المذهلة التي تعكسها آيات القرآن والأحاديث الشريفة، وبخاصة أن الأديان الأخرى كانت تضع التعلم تحت الرقابة وتجعله حكرا على الكهنة والطبقة الحاكمة ليس إلا، إن لم تعاقب على إفشاء العلم بين العامّة، فضلا عن إحراق الكتب، الذي يؤكد أنه سيظل إلى الأبد وصمة عار في جبين من اجترحوه، وفي جبين الكنيسة أيضا لارتضائها ومباركتها هذا العمل المخزي، على عكس محمد – صلّى الله عليه وسلّم– الذي دعا البشر جميعا على اختلاف طبقاتهم ومهنهم وظروفهم إلى السعى حثيثا في طلب العلم رجالا ونساء من المهد إلى اللحد، بل أوجبه عليهم غير مكتفٍ بجعله حقا من حقوقهم يمكنهم أن يأخذوه أو يهملوه، وجَعَله بابا إلى الجنة، وساواه في الفضل بالاستشهاد في سبيل الله، بل فضّل العلماء على العبّاد المنعزلين عن تيار الحياة وميادين الجهاد بمثل ما يَفْضُل به البدرُ سائرَ الكواكب. ومع هذا يجدّ أحمد صبحي منصور في محاولة هدم الأحاديث النبوية التي يقف أمامها البروفسير ستيفن مشدوها مما فيها من عبقرية سبقت الأزمان بمسافات شاسعة.

وفي مجال آخر من مجالات العبقرية النبوية التي ما كنا لنعرفها، فضلا عن أن نقدرها حق قدرها، لولا أحاديث النبي –صلَّى الله عليه وسلَّم– التي سجلت مظاهر تلك العبقرية، والتي يريد أحمد صبحي منصور ومن على شاكلته أن يدمروها بحجة الحفاظ على الإسلام من الزيف، والبهتان، والتشويه، والضلال!!

كتبت فرنشيسكا دو شاتل، وهي صحفية وأنثروبولوجية هولندية، بحثا بديعا أبدت فيه انبهارها بموقف النبي الكريم من الطبيعة حتى لقد عدته رائد الحفاظ على البيئة في العالم، وجعلته سابقا لعصره، بل سابقا للعصور الحديثة بأشواط. قالت في الفقرتين الأوليين من ذلك البحث: "جاء في الحديث النبوى: "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهمة إلا كان له به صدقة"[35]. الواقع أن القول بأن محمدا –صلَّى الله عليه وسلَّم– رائد من رواد الحفاظ على البيئة سوف يقع في آذان الكثيرين في البداية موقعا غريبا؛ إذ لا شك أن مصطلح "الحفاظ على البيئة"، وما يرتبط به من مفاهيم مثل "البيئة"، و"الوعي البيئى"، و"ترشيد الاستهلاك" هي ألفاظ من اختراع العصر الحديث، أي مصطلحات صيغت لتواجه الاهتمامات المتزايدة بالوضع الراهن لعالم الطبيعة من حولنا. ومع ذلك فإن قراءة الأحاديث النبوية عن قرب، أي تلك الروايات المتعلقة بالأحداث الهامة في حياة محمد، لَتُرِينا أنه كان واحدا من أشد المنادين بحماية البيئة. بل إن بمستطاعنا القول إنه كان في نصرته للبيئة سابقا لعصره، أي رائدا في مجال المحافظة على البيئة والتطور الرشيد والإدارة الحكيمة للموارد الطبيعية، وواحدا من الذين يَسْعَوْن لإقامة توازن متناسق بين الإنسان والطبيعة. وبالاستناد إلى ما أوردته لنا الأحاديث من أعماله وأقواله يمكننا القول بأن محمدا كان يتمتع باحترام عميق لعالم النباتات والأزهار، وأنه كان على صلة حميمة بعناصر الطبيعة الأربعة: التراب، والماء، والنار، والهواء".

وهناك أستاذ جامعي أمريكي، هو البروفسير جيفرى لانج، اعتنق الإسلام أواخر القرن الماضي، وأصدر عدة كتب منها كتاب " Struggle to

Surrender"، الذي خصص جزءا كبيرا من فصله الثالث للكلام عن الحديث النبوي. وأشار لانج إلى أن الحديث النبوي كان هدفا للنقد الاستشراقي، وأعلن عن رغبته في أن يكون هناك ردٌّ فعّالٌ على هذا النقد من جانب المسلمين الموجودين في الغرب المعادي للإسلام معاداة راديكالية حسب وصفه. كما أشاد بعلم الحديث وبرجاله وتقواهم ومنهجيتهم الصارمة الدقيقة، وأثنى على كتبهم ثناء كبيرا، وبخاصة كتب الصحاح الستة المعروفة؛ إذ قاموا بغربلة الآلاف المؤلفة من أحاديث الرسول تمييزا لصحيحها من سقيمها، وهو ما اقتضاهم مجهودا ضخما يُحمد لهم. وبلغ من دقتهم، حسبما يقول، أنهم كثيرا ما يقبلون حديثا معينا ثم يرفضون حديثا آخر له نفس المتن دون أدنى خلاف، بسبب أن رواة هذا معدَّلون، ورواة ذاك مجرَّحون؛ مما يدل على مدى صرامة الطريقة التي اتبعوها في توثيق كلام النبي عليه الصلاة والسلام. ثم ينقل كلام شبرنجر عن علم توثيق الرواة وتضعيفهم بأنه مفخرة للفكر الإسلامى. لكنه يشكو في نفس الوقت من وجود أحاديث منسوبة للنبي عليه الصلاة والسلام لا تتفق وما يتطلع إليه المرء عند نبى من أنبياء الله أو تسوّغ أشياء لا يقبلها العقل والمنطق.

وأنا أتفق معه إلى حد بعيد؛ إذ أقول دائما إن علماء الحديث قد بذلوا جهودا عبقرية في جمع الأحاديث وتمحيصها وتبويبها، فحفظوا للمسلمين ذخيرة لا تقدر بثمن، ولا يمكن أن يثيبهم عليها سوى رب العباد سبحانه، إلا أن هذا لا يعني أن كل ما أوردوه من حديث هو صحيح حتما. لقد استفرغوا وسعهم ولم يَأْلُوا، والباقي علينا. وكما اجتهدوا هم نجتهد نحن. وقد نصيب نحن بدورنا، وقد نخطئ. والله قد تكفل لنا، كرما منه وتفضلا، بأن يجزينا في الحالين الجزاء

الحسن. فمِمَّ الخوف؟ وفيم التحرج؟ وأرى أنه إذا بدا لمسلم أن حديثا من الأحاديث لا يقنع عقله فلا ضرر على إيمانه ما دام يبحث عن الحق ويقدم المسوغات لما يقول.

إن المسلمين عموما يؤمنون بأن البخاري هو أصح كتاب بعد كتاب الله، لكنْ يُلاحَظ في ذات الوقت أنهم لا يفرقون بين هذا الحكم على "صحيح البخارى" وبين كونه كتابا معصوما. إن الكتاب المعصوم هو كتاب الله، وما دام البخاري يأتى بعده فهو ليس بمعصوم؛ لأن العصمة ليست درجات، بل درجة واحدة. وعلى هذا فإما أن يكون الكتاب معصوما أو لا يكون، وما دام كتابٌ ما يأتي بعد كتاب آخر معصوم فمعناه أنه أقل منه، ومن ثم ليس معصوما مثله. إنه قد يكون أوثق من غيره من كتب الحديث، نعم. لكنه ليس معصوما. على أن هذا لا يعني أبدا أن كل من هبّ ودبّ يمكنه، تحت هذه الحجة، أن يشرع في الهجوم على كتب الصحيح بحجة أنها غير معصومة. بل عليه أن يكون على مستوى الأمر ويبحث ويحقق ويدقق ويقدم مبررات عدم اقتناعه بهذا الحديث أو ذاك، واضعا في ذهنه قبل كل شيء أنه مجرد مجتهد، وأن ما يقوله قابل للصواب والخطأ، وأن علماء الحديث قد بذلوا جهودا جبارة لا يمكن شطبها بجرة قلم من جانب أي فَسْل لا قيمة له في دنيا العلم والعلماء. وبالمناسبة فقبل تصنيف البخاري لـ "صحيحه" كان الشافعي يقول إن أصح كتاب بعد كتاب الله هو "موطأ" مالك.

إن علماءنا الكرام قد خدموا السنة النبوية خدمة جُلَّى، وبذلوا جهودا عظيمة في التحقق من عدالة الرواة وضبطهم. ولكن هذا لا يمنع أبدا أن نبدأ خدمة السنة من حيث انْتَهَوْا، فننظر في مضمون الأحاديث ونتحقق من صحتها

ودقتها مراعين ألا تناقض القرآن في شيء أو تتعارض والروح العامة للإسلام ومبادئه وقيمه العليا وعقائده المتفق عليها، أو تخالف الحقائق العلمية المقطوع بها، أو تدابر التاريخ القطعي وأحداثه وأرقامه أو تعاكس الطبيعة البشرية التي نعرفها على مدى الأحقاب، أو أوضاع المجتمعات ،أو نفسية الجماهير ،أو سنن الله في الكون أو المنطق العقلى العام... إلخ. كما ينبغي أن نغلِّب الجوهريات على الشكليات، والمتون على الهوامش، والواجبات على النوافل، والأهم على المهم... وهلم جرا. وعندنا أيضا التحقق الأسلوبي. فلا شك أن من تمرس بأحاديث النبي وخطبه وحواراته يتشكل لديه انطباع عن أسلوبه اللغوي. فلو وجد المحقق أن في الحديث الذي ينظر فيه لفظا، أو تعبيرا، أو تصويرا، أو تركيبا لم يكن يستعمله النبي: إما لأنه لم يكن من استخدامات عصره ومجتمعه أو لم يكن من استعمالاته هو الشخصية كان هذا سببا معضدا لعدم اطمئنان ضميره لذلك الحديث.

وليس في الأمر ما يدعو إلى الحرج من جانب المتحقق ولا إلى الغضب من جانب العلماء الآخرين، فقد كان الصحابة ينتقد بعضهم بعضا، ويرد بعضهم رواية بعض أو يطالبونهم بالدليل على صحة الحديث أو بشاهد آخر على ذلك. فمثلا تقول عائشة في حديث لها: "من زعَم أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم رأي ربَّهُ فقد أعظَم الفِرْيَةَ على اللهِ تعالى، ولكنَّهُ رأي جِبريلَ مرَّتينِ في صورتِه وخَلْقه سادًّا ما بين الأُفُقِ"[36]. ومعنى هذا أنه كان هناك من يقول ذلك، فانتقدته عائشة أيَّما انتقاد، ولم يمنعها من هذا الانتقاد الشديد، بل التكذيب العنيف أي اعتبار. ويقول أبو سعيد الخدري: "كنتُ جالسًا بالمدينةِ في مجلسِ الأنصارِ، فأتانا أبو موسى فزِعًا أو مذعورًا. قلنا: ما شأنُك؟ قال:

إنَّ عمرَ أرسل إليَّ أن آتيَه، فأتيتُ بابَه فسَلَّمْتُ ثلاثًا، فلم يَرُدَّ عليّ، فرجعتُ، فقال: ما منعك أن تأتينا؟ فقلتُ: إني أتيتُ فسلَّمْتُ على بابِك ثلاثًا، فلم يَرُدُّوا عليّ، فرجعتُ. وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: إذا استأذن أحدُكم ثلاثًا فلم يُؤْذَنْ له فلْيَرْجِعْ. فقال عمرُ: أقِمْ عليه البيِّنَةَ، وإلا أوجعتُكَ. فقال أُبَيٌّ بنُ كعبٍ: لا يقوم معه إلا أصغرُ القومِ. قال أبو سعيدٍ: قلتُ: أنا أصغرُ القومِ. قال: فاذهبْ به"[37].

كذلك "ذُكِر عند عائشةَ قولُ ابنُ عمرَ: الميتُ يُعذَّبُ ببكاءِ أهلِه عليهِ. فقالت: رحم اللهُ أبا عبدِ الرحمنِ. سمع شيئًا فلم يحفظْه. إنما مرت على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم جنازةُ يهودي، وهم يبكون عليهِ، فقال: "أنتم تبكون، وإنَّهُ لَيُعذَّب"[38]. وهناك حديث آخر في ذات الموضوع عن عبد الله بن أبى مليكة هذا نصه: "توفيت ابنة لعثمان رضي الله عنه بمكة، وجئنا لنشهدها، قال: وحضرها ابن عمر وابن عباس، وإني لجالس بينهما (أو قال: جلست إلى أحدهما، ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي)، فقال عبد الله بن عمر لعمرو بن عثمان: ألا تنهي النساء عن البكاء، فإن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: إن الميت لَيُعَذَّب ببكاء أهله عليه؟ فقال ابن عباس: قد كان عمر رضي الله عنه يقول بعض ذلك، ثم حدَّث قال: صدرتُ مع عمر من مكة حتى كنا بالبيداء إذا هو بركب تحت ظل سَمُرَة، فقال: اذهب وانظر إلى هؤلاء الركب. قال: فنظرت، فإذا هو صهيب، فأخبرته. قال: ادعه لي، فرجعت إلى صهيب. فقلت: ارتحل، فالحَقْ أميرَ المؤمنين. فلما أصيب عمر دخل صهيب رضي الله عنهما يبكي يقول: وا أخاه! وا صاحباه! فقال عمر رضي الله عنه: يا صهيب، أتبكي عليَّ، وقد قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إن الميت

ليعذَّب ببعض بكاء أهله عليه؟ قال ابن عباس: فلما مات عمر رضي الله عنه ذكرتُ ذلك لعائشة رضي الله عنها، فقالت: رحم الله عمر. والله ما حدَّث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن الله يعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إن الله ليزيد الكافر عذابا ببكاء أهله عليه. قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن: "ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى". قال: وقال ابن عباس عند ذلك: والله أضحك وأبكى. قال ابن أبي مليكة: فوالله ما قال ابن عمر شيئا"[39].

وكان بعض الصحابة يضيق بكثرة رواية أبي هريرة لأحاديث رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فدافع عن نفسه بأنه كان ملازما لرسول الله عليه السلام في حين كانوا هم مشغولين بأمور حياتهم عن الالتصاق بالنبي التصاقه به. ومن ذلك الحديث التالي: "قيل لعائشةَ: إنَّ أبا هريرةَ يقول: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: الشُّؤمُ في ثلاثٍ: في الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ. فقالت عائشةُ: لم يحفظْ أبو هريرةَ؛ لأنه دخل ورسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: قاتَل اللهُ اليهودَ. يقولون إنَّ "الشؤمَ في الدَّارِ والمرأةِ والفرسِ"، فسمع آخِرَ الحديثِ، ولم يسمع أَوَّلَه"[40]. وعن أبى هريرة "مَن تبِع جنازةً فصلَّى عليها فله قيراطٌ، فإن شهِد دفَنها فله قيراطانِ، والقيراطُ أعظمُ مِن أُحُدٍ. فقال له ابنُ عُمرَ: يا أبا هريرة، انظُرْ ما تحدِّثُ به عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. فقام إليه أبو هريرةَ فأخَذ بيدِه حتى انطَلَق به إلى عائشةَ، فقال لها أبو هريرة: أَنْشُدُك باللهِ هل سمعتِ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: مَن تبِع جنازةً فصلَّى عليها فله قيراطٌ، فإن شهِد دَفْنَها فله قيراطانِ، القيراطُ أعظمُ مِن أُحُدٍ؟ فقالتْ: اللهم نعَم. فقال أبو هريرةَ: إنه لم يكُنْ يشغَلُنى عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم غرسٌ.

إنما كنتُ ألزمُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لكلمةٍ يعلِّمُنيها أو لقمةٍ يطعِمُنيها"[41].

ومعروفٌ الخلاف الحاد الذي نشب بين عمر وأحد الصحابة حول الطريقة التي يقرأ بها كل منهما القرآن، وإسراعهما إلى الرسول ليتأكدا أيهما المصيب. ولو كان هناك مثل ذلك التحرج الذي نظنه لقد كان كلاهما حريا أن يصدّق الآخر ولا يرفعا الأمر إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. كما أن الأقضية التي كانت ترفع إلى رسول الله دليل آخر على أنهم لم يكونوا يَرَوْن في اختلافهم أي حرج، وإلا ما كان أحدٌ قاضَى أحدا، فإنّ خصمه صحابي لا يصح القدح فيه أو الاختلاف معه. ثم عندنا حديث الإفك، ألم يخض فيه بعض الصحابة؟ وفوق هذا ألم يزن هذا ويسرق هذا من معاصري النبي ممن شاهدوه وتحدث إليهم وتحدثوا إليه؟

ويدخل جورج طرابيشي على الخط في كتابه: "من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث– النشأة المستأنفة" زاعما أن آيات القرآن تنهي رسول الله عن التشريع، وتحصر دوره في مجرد إبلاغ الوحي، وتمنعه من أخذ زمام المبادرة في أي شيء. ومن هذه الآيات قوله تعالى: "**فهل على الرسل إلا البلاغ المبين؟**" (النحل/ 35)، "**ليس لك من الأمر شيء**" (آل عمران/ 128)... إلخ.[42] فأما قوله سبحانه: "**ليس لك من الأمر شيء**" فليس معناه أنه ليس للرسول أن يشرع، بل معناه أنه ليس له الحق في الحكم على مصير أحد من أعدائه بالتعذيب أو النجاة، بل مرد ذلك إلى الله، فالله هو المحاسب وصاحب البت في مصير العباد لا هو. ولا صلة، كما نرى، بين هذا وبين ما يقوله طرابيشي. وأما أن دور الرسول ينحصر في التبليغ فالمقصود أنه لا حق له

في إكراه أحد على قبول الرسالة التي أتى بها ما دام لا يريد اعتناقها، بل هو مجرد مبلغ، وأما القبول والرفض فمن حق من يدعوهم إلى دينه. ثم لقد تكرر من الرسول إصدار أحكام وفتاوى، ولم ينزل الوحي ينهاه مبدئيا عن ذلك قط. بل هناك آيات تتوعد من يرفض الاحتكام إليه صلى الله عليه وسلم. ومعنى هذا أن من حقه نظر القضايا والفصل فيها، وهو ما يستلزم منه استخلاص الأحكام من نصوص القرآن العامة أو إضافة ما لم يتناوله القرآن مما يسير في اتجاه مبادئ الإسلام وقيمه. صحيح أن القرآن نزل في بعض الحالات يعارض ما حكم أو أفتى به عليه السلام، لكنه من الناحية الأخرى أمضى ما قاله في كثير من القضايا الأخرى. وفي الكتاب الذي بأيدينا الآن أمثلة كثيرة جدا على هذا. بل إن معارضة القرآن لما حكم به الرسول في بعض الحالات لدليل قاطع على أنه لم يكن ممنوعا من الحكم والفتوى، وإلا لما حاول هو ذلك أصلا أو لنهاه القرآن عنه في كل مرة يخالفه فيها. هكذا ينبغي أن يكون التفكير والتحليل، أما ما يقوله طرابيشي فهو رأي مسبق دخل به ليفرضه على النصوص والأحداث فرضا. ومن الغريب المدابر للمنطق أن من يعترضون على قيام الرسول بإصدار الأحكام والفتاوى لا يجدون شيئا في قيام أتباعه صلى الله عليه وسلم من علماء وفقهاء وقضاة بذلك، وهو ما يعني أنهم يرون هؤلاء الأتباع أفضل منه في نظر الله وفي نظرهم هم أيضا. وهذا تفكير متهافت، بل متهاوٍ. واضح أن طرابيشي لا يحسن فهم الآيات ولا تنزيلها على الحالات التي ترتبط بها.

ويدخل في ذلك تعامله مع قصة الغرانيق على أنها حادثة حقيقية تجاوز فيها محمد –صلى الله عليه وسلم– دوره كمبلغ لما ينزل عليه من قرآن، فأضاف جملتين من عنده لم تردا في سورة "النجم" يعلى فيهما من شأن اللات والعزى ومناة بغية التقرب من القرشيين كي يؤمنوا برسالته. وزاد طرابيشي فادعى أن تلك القصة هي من المسكوت عنه. يريد أن يقول إن المسلمين ضربوا عنها صفحا وتناسوها لأنها تدين محمدا[43]. وأنا أستغرب هذا من طرابيشي أشد الاستغراب: فهذه القصة لم يسكت عنها المسلمون في يوم من الأيام منذ جاءتنا الروايات بها حتى يوم الناس هذا وإلى ما شاء الله ما دام هناك قرآن وكلام عن القرآن ومحمد. كذلك كان الأحجى بواحد كطرابيشي يقدَّم للناس على أنه مفكر كبير أن يكون تناوله لتلك الحكاية تناولا أعمق وأكثر حكمة. ويجد القارئ الكريم في موضع آخر من هذا الكتاب تحليلا عميقا ومرهقا لهاتين الجملتين من الناحية التاريخية والاجتماعية والنفسية والأسلوبية ومن ناحية بناء السورة انتهى إلى أنهما ليستا من القرآن، الذي يقول طرابيشي وأشباهه إن مؤلفه هو محمد، ولا تجريان على أسلوبه. وكنت أحب لو أن طرابيشى برهن في معالجته لهذه الحكاية على أنه ذو عقل واسع متفتح يتعمق الأشياء ولا يسارع إلى التمسك بكل ما يقابله في الكتب في غير صالح الإسلام. وهذا واضح أشد الوضوح من إشادته الهائلة بكتاب معروف الرصافى عن الشخصية المحمدية[44]، الذي بذل فيه الشاعر العراقي جهدا شيطانيا ليثبت عبثا أن محمدا هو مؤلف القرآن وأنه لا وحي ولا يحزنون، بل لا إله كما نفهم نحن الألوهية، وفندت أنا كل ما قاله كبيرا كان أو صغيرا في كتاب ضخم لي عن هذا الموضوع*، وبينت أن الرجل قد فقد عقله ولياقته وأنه لا يعى جيدا ما

يقول. كذلك فإن كراهية طرابيشي للإسلام واضحة من حملته العصبية العنيفة على دفاع د. عبد الرحمن بدوي عن النبي عليه السلام واعتباره هذا الدفاع ردة من عبد الرحمن بدوي من أسوأِ ما يمكن. الحق أن طرابيشي لم يكن قط واسع الأفق، بل كان متعصبا تعصبا ذميما ضد النبي والوحي والإسلام كله كاشفا البغض الذي يملأ قلبه تجاه دين التوحيد.

الهوامش

1_سنن أبي داود: الحديث 4606 ومسند أحمد: 17447.

2- رواه الترمذي في سننه، الحديث 2876.

3- رواه أبو داود في سننه، حديث رقم 4607.

4- الكفاية في علم الرواية: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: ماهر ياسين الفحل، دار ابن الجوزي، الدمام، 1432هـ، ص105.

5- السابق، ص106.

6- رِسَالَةٌ الْفُرْقَانِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ: ابن تيمية الحراني، الشاملة الذهبية، ص97.

7 - النجدات: طائفة من الخوارج من أتباع نجدة بن عامر بن عبد الله الحنفي.

8- من أئمة المعتزلة، توفي 231 هـ.

9- انظر: القرآنيون وشبهاتهم حول السنة: د. خادم بخش، مكتبة الصديق، السعودية، ط2، 2000م، من 25 إلى 54.

10- انظر مقاله بمجلة المنار، بعنوان: الإسلام هو القرآن وحده، عدد رجب 1324هـ.

11- انظر جميع الادعاءات التي سيتم تفنيدها في هذا المقال، في الكتاب المذكور: القرآن وكفى مصدرًا للتشريع: أحمد صبحي منصور، دار الانتشار العربي، ط1، 2005م.

12 - سورة عبس من الآية 1 إلى 11.

13 - سورة التحريم: الآية 1.

14 - سورة المنافقون: الآيتان 5، و6.

15-الحوار المتمدن:

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=31305

16- رواه ابن ماجه في سننه، حديث رقم 787.

17 - رواه الجماعة إلا البخاري.

18 - رواه أبو داود في سننه، الحديث 212.

19 - شرح مشكل الآثار: أبو جعفر أحمد المعروف بالطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1، 1994م، 204/11.

20 – رواه النسائي في سننه، حديث 3470.

21 – رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده، 392/3، حديث: 1868.

22 – متفق عليه.

23 – الحوار المتمدن،

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=151006

24 – رواه أحمد في مسنده، الحديث 17447.

25 – تاريخ الطبري، دار التراث – بيروت، الطبعة الثانية – ١٣٨٧ هـ، 394/2 – 396.

26 – انظر على سبيل المثال: تفسير الثعلبي 10/ 147، وتفسير البغوي 2/ 185.

27 – صحيح البخاري: الأحاديث 4617/ 5148/ 5195.

28 – صحيح مسلم، الحديث 4785.

29 – صحيح مسلم، الحديث 4787.

30 – صحيح البخاري، الحديث 2921.

31 – صحيح مسلم، الحديث 4793.

32 – سنن أبي داود، الحديث 2731.

33 – سنن أبي داود، الحديث 3643.

34 – الموافقات للشاطبي 4/25–26، والسنة ومكانتها للسباعي ص: 386 فما بعدها، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 234/2.

35 – متفق عليه.

36 – رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ متقاربة.

37 – صحيح مسلم، الحديث 5751.

38 – صحيح مسلم، الحديث 2196.

39 – انظر: صحيح البخاري، الحديث 1300، وسنن النسائي، الحديث 1869.

40 – مسند أبي داود الطيالسي، الحديث 1641.

41 – مسند أحمد، الحديث 4539.

42 – انظر: من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث النشأة المستأنفة، لجورج طرابشي، دار الساقي، بيروت– لندن، ط1، 2010، ص9، و10.

43– السابق، ص18، و19.

44 – السابق، ص18.

* انظر كتابي: هلاوس معروف الرصافي في كتابه: الشخصية المحمدية تحت المجهر، مكتب التفسير للطبع والنشر، ومركز الزهاوي للدراسات الفكرية، ط1، 2021. وانظر في الرد على معروف الرصافي أيضا: المنح الربانية للشخصية المحمدية في الرد على الرصافي، للشيح خالد الجندي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2016.

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

– الكتاب المقدّس.

– الإسلام هو القرآن وحده: د. توفيق صدقي، مجلة المنار، عدد رجب 1324هـ.

– تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري: أبو جعفر الطبري، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية – ١٣٨٧ هـ.

– رِسَالَةٌ الْفُرْقَانِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ: ابن تيمية الحراني، برنامج الشاملة الذهبية.

– شرح مشكل الآثار: أبو جعفر أحمد المعروف بالطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1، 1994م.

– القرآن وكفى مصدرًا للتشريع: أحمد صبحي منصور، دار الانتشار العربي، ط1، 2005م.

– القرآنيون وشبهاتهم حول السنة: د. خادم بخش، مكتبة الصديق، السعودية، ط2، 2000م.

– الكفاية في علم الرواية: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تحقيق: ماخر ياسين الفحل، دار ابن الجوزي، الدمام، 1432هـ.

– من إسلام القرآن إلى إسلام الحديث النشأة المستأنفة: جورج طرابشي، دار الساقي، بيروت– لندن، ط1، 2010.

– موسوعة الحديث الشريف، المكنز الإسلامي، 2010م.

- Jeffery Lang: Struggle to Surrender, amana publications - Beltsville, Maryland, USA, Second Revised Edition 1416AH / 1995 AC).

N. Stephen, "Muhammad and Learning," Irlamz'c Review, 5 (Jan. 1917).